مَوتُ الرَّئِيس

أحْمَد فتْحِي سُلَيمَان

هذهِ روايةٌ خيالية تدورُ أحداثها في دولة ليس لها وجود على أرض الواقع؛ فإن وجدتَّ تشابُهًا بين أحداثها وبين الواقع أوحتى تاريخ قريب لأحدى الدول فلا تظن أنها المقصودة، فإن الأفكار تخلق الأحداث، وتلك الرواية تُناقش أفكارًا شائعة للغاية لهذا تتشابَه أحداثها الخيَالية مع أخرَى حقيقية ولكن تأمَّل في هذه الأفكار وراء الوقائع.

يَومُ الجنَازةِ

خَرج النَّعش مِن المشفى محمولاً على أعْناق ثمانية مِن كبار قادة الجيش والأمن الداخلي يتقدمهم صفَّين من ضباط الشرف حاملين الزهور ويتبعهم صُفوف متتالية طويلة من رجال الدولة والحِزب الحاكم يتقدمهم ابن الرئيس باسل بين رئيسيّ الوزراء والبرلمان، ثم وُضع في عَربة مَدفعية مُجللة بالعلم الوطني إلى المسْجدِ الكبير حيث توافد رؤسَاء الدول لإلقاء النظرة الأخيرة على جُثمانه وتقديم واجب العزاء إلى ابنه ورجَال دَولته قبل أن ينقل الجُثمان إلى الضريح الذي أعد له بمسقط رأسه بقرية القرداجية الصغيرة بحسب وصيته.

كنت في شقتي اللندنية أرتشفُ قهوتي الصَّباحية وأنا أشاهدُ على شاشة التلفاز وُفود الدول المعزية التي شاركت في ذلك الصباح الخرِيفي المشمس في بلادي، بينما زخَات الأمْطار تكاد تكسر نافذتي، فارق التوقيت ساعة واحدة ولكنّ الطقس يختلف اختلافَ الشرق والغرب.

رنين هاتفي حمل اسم جورج الناشر الذي أحبُّ اعتباره صديقي كنت أعرف ما يريد، أغلقتُ صوت التلفاز قبل أن أرد.

– صباحُ الخير جورج.

– صباحُ الخير، آدم هل تشاهدُ الجنازة؟

– نعمْ.

–أظن الوقت مناسب لإكمال مشروع كتابك عَن الرئيس، الصُّحف العالمية كلها سَتذكره وتعيد فتح المِلفات الشائكة المرتبطة به وعصره وتحاول أن تستشفَّ المرحلة القادمة وماذا سيجري في المنطقة بعد غِيابه.

كانت الصُّورة في التلفاز قد انتقلتْ إلى الشارع حيث مِئات المواطنين المنتحبين يَحملون صور الرئيس والزهور وَسط دموعهم.

-أتظن أن الوقت قد أصبحَ مناسبًا؟

-بالطبع، وأؤكد لك أن دزينة من المحررين يفكرونَ الأن في صِياغة كتب تحكى قصة الرئيس وتحلل فترة رِئاسته وصِراعاته الدَّولية والدَّاخلية مُستغلين تجدد حَالة الجدل حَوله وأعلم أنك اشتغلتَ على هذا الكتاب طويلاً، فلا يجب أن تضع فرصة الدعاية المجانية لصالح من لا يهتمون بالموضوع إلا من ناحية تسويقية صرفه.

- أنت محقٌ كالعادة.

- فمتى إذًا أنتظرُ مِنك مُسودَّة أولية؟

- ليس قبل أن أنهي قَهوتي الصَّباحية بالتأكيد.

- ضاحِكاً "حسنًا ولكن لا تجْعلني أنتظرُ طويلاً يا صديقي".

أنهيتُ المكالمة وأشعلتُ سِيجارة وأعدتُ الصوتَ للتلفاز وأنا أشاهد فتاة عشرينية لم تخف دُموعها المنداحة من عيناها المحتنقتين جمَالها الشابُّ وهي تصفُ أحساسها باليُتم بوفاة الرئيس وحولها عَشرات الشاباتِ والشُّبان الأخرين في حَالة شِبه هِستيرية.

وعلى الجانب الأخر من البحر في مدينة صغيرة كان دكتور مُنصف يجلسُ في غرفته وحيدًا يشاهد الجنازة وقد اتسعت عيناه دهشةً وهو يُشاهد جُموع الشبابِ الباكينَ الذين رغم ملابسَهم العصْرية شوَاربهم كثة في محاكاة للرئيس وهم يدفعون في عقله سؤال مخيف " هل كنت على خطأ؟".

اليومُ التاليُّ للجِنازَة

لم يكن جورج مخطئاً عِندما قفز اسْمي في ذهنه مُرتبطًا بمُحاولة التربحِ من وَفاة الرئيس بإلقاء خبز مطابع فاخر وساخن للسُّوق الثقافي، الذي هو ككل سوقٍ متعطش دائمًا لما هو جديد ومثير، فقد جمعت على مر السنوات الماضية أكوام من المواد اللازمة لإنتاج كتاب كهذا في أسرع وقت وكأنني بشكل ما كنت أنتظرُ هذهِ اللحظة.

على حاسُوبي عشراتِ الوثائق والمقالات وملفات الفيديو داخل مجلد مخصص لكل ما يتعلق بالرئيس، استعرضت محتويات المجلد بسرعة لتذكر فحْوَى كل مَلف قبل أن أتوقفَ عند مقطع فيديو لأحد لقاءاتِ الرئيس التلفزيونية النادرة مع الصحافة الأجنبية معَ مقدمٍ تلفزيوني أميركي شهير.

عندما تشاهدُ خطابات الرئيس أو لقاءاتهِ القليلةِ المسجلة، لا يسعكَ إلا الأعتراف بكاريزمته السينمائية الفائقة. كل ما فيه كان ينضح بقوة فائقة، لا تمثل قامتهِ المديدة وبنيانه المشدودُ وشاربه الكث إلا جزء يسير منها بينما تتضافر نظراته الثاقبة المخترقة للجدران وصوته القوي الهادىء لرجل يعرف أنه لا يحتاج لرفع صوته في إكمال صورة أسطورية تداعبُ خيال الجماهير المذعورة دائمًا الباحثة عن بطل يقابل ما يثير في قلوبها الرعب بهدوء مستهينًا بكل المخاطر، وكانَ الرئيسُ أفضلَ نموذجًا لهذا النوعِ من الرجَال.

وبرغم إجادة الرئيسُ للإنجليزية بطلاقة إلا أنه كان دائمًا يستعين بمترجم ولا يتحدثُ إلا بالعربية، ربما لأنه يدرك أنها لغة أغلب المتابعين أو ليكون أكثرَ حرية في اختيار ألفاظه أو ربما كبريائه لم يكن يسمحُ له أن يتنازل ويتحدثُ بلغةٍ غير لغته.

كان محورُ الحديثِ الحقيقي بعيدًا عن البدايات التقليدية والأسئلة التمهيدية حول القمعِ العنيف الذي يمارسه النظام ضد معارضيه، وحاول المذيع كسب نقطة مبكرة بمواجهة الرئيس بأن تقاريرعديدة تتهمه بتصفية مُعارضيه السياسيين.

أجاب الرئيسُ بهدوء:

– نعم الخيانة العُظمَى جَريمة عُقوبتها الأعدام كما هو مَنصوص عليه في الدستور.

– وهل تسمَّى معارضتك خيانة عظمى؟

– لكل نظام سياسي من يعارضه في الرأي وهذا أمر طبيعي ومقبول طالما كانَ الاختلاف حول ما هو أصلح للوطن أما غير الطبيعي وغير المقبول أن تكون المعارضة طمعًا في تحقيق مصالح شخصية أو أيدولوجية وخاصةً أن ارتبطتْ بالاستقواءِ بالخارج فهذا ما لا نُسميه إلا باسمه وهو الخيانة العظمى التى يعد السكوتُ عليها جريمة في حقِ الوطن وانحطاط اخلاقى لا اقبله..فأي انحطاط هذا أن أتسامحَ مع من يرغبون في حكمِ البلاد على ظهر دبابة أجنبية أو تمزيقه إلى أشلاء طائفية مِن أجل شهوته السُّلطوية وأضعَه على قدم المساواة مع شرفاء الوطن وإن كانوا يَختلفون مَعنا في بعض الأراء من أجل ترضِية قوىً خارجية لا تعنيها على الأطلاقِ مصلحة الوطن أو مقدرات أبناءه وإن ادّعت تعاطفها مع بعضهم.

أما من قضيتهم مصلحة الوطن ويعملون لصالح مواطنيه وليس لطائفة أو جماعة منه دون أن يسمحوا لقوى خارِجية بأن تحولهم لأدوات يستعملونها ضدَ وطنهم فهم على العين والرأس ولهم كل أحترام.

– ولكن سيدي الرئيس من حق كل فرد أن يعتقد ما يشاء ويتخير عقيدته وأيدُولوجيته كما يَشاء ومن حقه أن يعبر عن أفكاره بحُرية وإن خالفت مبادئ حزبكم وتعارضت مع أيدولوجيته فهذا حق من حقوق الأنسان لا يمكن جحده تحت ذريعةِ التخوف منَ العُملاء المِدعومين من الخارج، والدول الديمُوقراطية تكفل لكل إنسان هذه الحقوق على قدم المساواة.

–ولماذا تحدثني عن الديموقراطية وحقوق الأنسانِ وغيرها منَ المفاهيم الغربية والتى لا نعرفها إلا كترجمةٍ لمصطلحاتها سواء كانتْ الترجمة دقيقة أم لا بإعتبارها خيرًا محضاً وكأنها السبيلُ الوحيد للتقدم والخير؟

لماذا يفترض بنا أن نعتبر أن معايير الغرب هي القياسية التى يجب أن نقيس نجاحنا وأخلاقيتنا عليها؟

ربما بعض المهزومين الذين لم يغادر المستعمر أذهانهم يرون ذلك ولكني لست مهزوم وليس عقلي محتل. لدينا الحق في الأختلاف ولدينا الحق في تحديد معاييرنا لا الألتزام بما يحدده الغرب المختلف عنّا ثقافة وعقيدة وتجربة تاريخية.

– وما السبيل إذًا؟ أليست تلك المفاهيم الغربية هي مَن حققت الرَّخاء والتقدم لشعوبها؟

– هذا يا عزيزى مثال واضح لما يدور بذهنية المهزوم.. الغرب قوي وناجح يمتلك المال والتقنية والسلاح. كم هو عظيمٌ هذا الغرب الشامخ في علياءه! إذًا فعلينا تقليده ومحاكاته بكافة السبل في كل شيء.. الديمقراطية منهجه السياسي فلتكن منهجنا، الليبرالية عقيدته الاجتماعية فلتكن عقيدتنا وهكذا.. ولكن هل نال يا صديقي المثقف الغرب كل هذه القوة من خلال الديمُوقراطية وحقوق الأنسان؟

نعم، استفاد الغرب كثيرًا من هذه الأفكارِ ولكن عندما كانت لديه القدرة الكافية للاستفادة منها.

الحقيقة كما تعرفُها أن أوروبا نهضتْ نتيجة حروبها مع المسلمين وكراهيتها لهم تلك الكراهية التي وحدتها في مواجهة المسلمين كعدو مشترك مَكّنهَا من تجاوز خلافتها الداخلية ثم مِن خلال أنانيتها واستعلائها الديني والعرقي الذي مَنحها القدرة على تبرير الأستعمار والاستعباد أخلاقيًا بحجة أنهم ينورون المستعمرين الأسيويين والأفارقة ويهدونهُم إلى طريق العقيدةِ القومية وإلى الحضارة فكنزوا ثروات عظيمة من المستعمراتِ التي استولوا على مواردها ثم حولوها لأسواقٍ لتصريفِ منتجاتها، وهذا التاريخُ الغير مشرفِ للغربِ هو من صَنع الدُّول العظمى، ثم بعدَ أن أصبحتْ غنية بما يكفي قامت حركات الحقوق المدنية وقامت دولة الرُّفاة ولكنها لم تكن ممكنة قبل قيام الدولة المركزية القوية القادرة على صُنع النهضة .

–قد يكون هذا صَحيح نسبياً ولكن ما عِلاقة هذا بقمع معارضيك؟ نحن لا نتكلم عن التّاريخ بل عن الحاضرِ ذو المعطيات المختلفة؟

– الدولة كالجسدِ البشري يحتوي بعض الفضلات ويبدو الحرص على العناصر التخريبية والرجعية والانتهازيين كاتهام مَن يتخلص من الفَضلات بأنه إقصائيٌ؟! لم تكن لتجلس أمامي الأن أن لم تقمع أفكار عديدة جَالت بخاطرك كل يوم. ففي كل مرة يكن لدي الأنسان ما يفعله ليحوز المِجد والنّجاح تقفز في ذهنه تصورات لينة تغريه بالراحة واللعب والنوم والاستمتاع بملذات الحياة.. فمن لم يقمعْ هذه الأفكارِ ويقتلعُها كما يقتلع العُشب الضار من الأرض حكم على نفسه بالفشل.

وكذلك الأمر في حَالة القادة.. هم من يقررونَ هلْ يتركون العشبِ الضَّار يفسد أرضَ بلادهم ليقال عليهم رُحماء وطيبي القلوب أم يجتثونه كمَا ينبغي عليهم؟

ولا يستحق لقب قائد أو زعيم إلا من يفعلْ ما يجب عليه لحماية وطنهِ كما لا يستحق أدنى نجاح من لا يفعل ما يجب عليه للوُصول إليه، هل عندما تعطي لأبنائك الصِّغار أموال طائلة وتترك لهم الحبل على الغارب تكن خيراً أم أب سيء توردهم المهالك؟

اعترض المذيع قائلاً:

– ولكنك لست أب والشعب ليس أبنائك! علاقة الحُكام بشعوبهم ليست علاقة أبوية بل تعاقدية قائمة على الأعتراف المتبادل بالحقوقِ والواجبات، هذا في حالة الديموقراطية بالطبع.

–أنا أنظر إلى حال من يطالبوني بالديموقراطية..وأرى الواقع في بلادهم الغنية الغبية حيث يدفع رجال الأعمال تكلفة حملات السياسِيين الأنتخابية ويدبج السياسيون قوانين تحفظ لرجال الأعمال مصالحهم ويعينون قُضاة يَحمون هذه المصالح وعندما يتذمرُ العمال يرفعون أجورهم مع تشجيع ثقافة الأستهلاك لينفقوا كل ما يتحصلوا عليه في شراء سلع لا يحتاجونها بأسعار مُبالغ فيها و يبقى الربح الأكبر للرأسماليين وهكذا تبقى هذه البلاد غنية ومستقرة لأن لديها من الموارد الكثير ولكن عندما تتناقص الموارد يكون البقاء بها عبء على رجال الأعمال فيأخذون أموالهم ويَرحلون كما يحدث الأن و يقومون بصناعة منتجاتهم في بلاد العالم الثالث بحثًا عن ربح أكبر من خلال العَامِل الفقير ..أما عاملُ بلادهم فليذهب إلى الجحيم..والناسُ يتشدقون بالحرية والديمقراطية ويتوهمون أنهم أحرار لأنهم يصرخون في الشوارع بلا طائلٍ وهم يَعيشون في وهم سرعان ما ينقضي عند أول أزمة جادة، وهذا الوهم لا يناسبنا وإن كانت هذه هي الديموقراطية التي يرغبون أن يروها في بلادنا حيث يتحكمُ في مقدراتِ الشعب قلة من الأغنياء والمتنفذين لا يعملون إلا لتحقيق مصالحهم ومصالح سادتهم في الغربِ بينما يتخبط الشباب بين الأراء والأفكار المتعارضة بلا طائل فلا نُريدها، نحنُ نريد أن نبنِ بلادنا لا أن ننشغل بالتنظير وإلقاء الخطب الجوفاء.

– وماذا عن المستقبل؟ هل يمكن أن نجد تحولاً للديمقراطية فِي بلادكم في المستقبل القريب؟ وهل تفكر فِي التَّقاعد بعد كل هذه السنوات في الحُكم؟

– كل نظام سياسي يرتكب أخطاء وخاصة في الأوقات العصيبة وقد شهدنا حُروبًا ضَروس داخلية وخارجية وواجهنا إرهابً أسودًا ومؤامراتٍ يشيب لها الولدَان ولكن لم يصلْني مظلوم إلا نصرته، ولا سائل إلا وأعَنته، ولا صاحب

حاجة إلا قضيتها له، دون أن أنتظر جزاءًا ولا شكورًا على آداء وَاجبي تجاه أبناءَ وطني الذينَ هم جميعًا في عيني سواء كرماء شرفاء يستحقون كل تبجيلٍ واحترامٍ إلى أن يَثبت العَكس.

وقد حققت بلادنا بفضلِ الله تعالى قفزات كبرى في مجالات التنمية المختلفة في السَّنوات القليلة المِاضية، أصبحَ لدينا الأن تَعليم مجَّاني مُعمم ورِعاية صَحية مُتميزة لكافةِ المواطنينَ وشبكة نقلٍ ومواصلات وبِنية تحتية قوية وأصبحتْ الكهرباءُ والمياهُ النظيفة تصل لكل بيتٍ ريفي.

مبتسماً قال المذيع مُحاولاً إحْراجه:

-ألاحظُ أن سِيادتك لا تجيبُ أسئلتي؟!

ابتسمَ الرئيسُ بهدوءٍ قبل أن يرد:

-جيد أنك لاحظت.. حاول إذًا أن تسأل الأسئلة الصَّحيحة حتى أجيبك عليها.. لا نريد أن نفقدَ اهتمام مُشاهدينا بأحاديثٍ مُعلبة مُستهلكة، لستُ معتادًا على أن يغير الناسُ القناة قبل أن أنهِ حديثي معهم.

تعبير الدهشة على وجه المذيع المرتبك أضحكني وتذكرتُ وصفة للرئيس بعد هذا اللقاء بأنه رجل يتغوط مُكعبات ثلج وضحكتُ ثانية.

استطرد الرئيسُ كلامَه ببساطة:

- من لا يخطىء لايعمل.. كيفَ يمكن لثورة تحقق كل هذه الأنجازات العظيمة إلا يرافقها أخطاء هنا أوهناك؟ أيّ ثورة نجحتْ في تاريخ العالم دون أخطاء؟

أمّا التعددية الحِزبية فقد وضعت خُطط ودبجت تعديلات دستورية لقيام نظام مُتعدد الأحزاب بعد استتباب الأمورفي البلاد ولكن لم يكن باستطاعتنا أن نسمحَ بأن يكتسبَ الخَونة والعملاء شرعية من خلال إنشاء أحزاب سياسية يخفون ورائها خيانتهم وكراهيتهم للوطن .. لم يكن باستطاعتنا أن نسمح للمتطرفين الدينيين وعملاء الأمبريالية أن ينشئوا أحزاب سياسية غايتها الأولى هي تقسيم الوطن وتمزيقه مرضاةً لطوائفهم ونوزاعهم الشريرة ولصالحِ حِساباتهم البنكية المتخمة وحتى يسلموا الوطن لقمة سائغة لأعدائه سواء باحتلال صريح علني أو بآخر مستتر من خلال

الوكلاء كما يفعل بكثير من الدُّول التى يظن شعوبها أنهم أحرار بينما قائدتهم وزعمائهم مجرد مُوظفين إداريين لدى المحتل يعبثُ بمقادير بلادهم كيفما شاء، ولكن الأرادة الشعبية كانت دائمًا حاضِرة والوَطن دومًا كان من وراء القصد.

حاولَ المذيع الإمْسَاك بدفّة الحوار ثانية فأسرع بالقول:

-كيف كانت الأرادة الشَّعبية حَاضرة في غيابِ التمثيلِ الديموقرَاطي للشّعب فلا يوجد إلا حزب واحد والشعب متعدد الأراءِ والتوجهات والقناعات بطبيعة الحال؟

- الأرادة الشَّعبية كانتْ حَاضرة من خلال القيم والمثل العليا التى يتمسك بها شعبنا وآمَاله في الأستقلال الحقيقي السِّياسي والاقتصَادي فلا نكون دولة تابعة ولا مُستعمرة والنمو والازدهار الحقيقي وليس الزَّائف القائم على إيرادَات النفط والسِّياحة.. تلك الأرادَة التي تجعل الجُندي يُخالف مصلحته الشخصية وحتى غرائزهُ الطبيعية ويقررُ أن يضحِي بحياته من أجل الوطن.. هذه الأرادة لا تقبل التمثيل ولا يعبرعنها ببطاقاتِ الأقتراعِ ورفعُ الأيدي ولكنها الأصدق.

يُشبه الأمرُ عِلاقة الطّبيب بالمريض.. شعبُنا مريض ونحن أبنائه الذين نريد عِلاجه نُعطيه دوائه الضرُوري والذي هو لصعوبة الداء مُرٍ وله آثار جانبية عديدة غير مَرغوبة ولكن مَهما رفض المريض الدواء وحاول رفس طبيبه ونعته بأقذع الألفاظ؛ ففي النهاية المريضُ يريدُ الشفاء والخلاص من المرضِ قبل أن يقتله.

كيفَ ترى القائد العسكري الذي يُرسل جنوده إلى معركة يعرفُ أن الكثيرينَ منهم سَيلقوا حتفهم بها ولن يعودوا إلى أمهاتهم وحبيباتهم اللواتي ينتظرونهن؟

هلْ تَراه مجرمًا في حَق هؤلاء وهوَ يحرمهم من أحبائهم ويلق بهم إلى التهلكة عمداً؟

إنْ كنتَ تظن ذلك فلم تعرف معنى الوطنية أبداً.. كما أن الأخلاقيات تفرضُ عليك أن تعملَ ضد مصلحتك الواضحة أحيانًا وتلق بنفسك في المتاعب والمهالك؛ فكذلِك الوطنية وقد كانت مسيرتنا الوطنية كلها حَربا ضَروسًا لم تنقطع أبدًا.

من أتى بنا إلى السُّلطة هو الشعب الذي ندينُ له بكل شيء وولائنا له مطلق ولم تأتِ بنا الدوائر الأمبريالية ومُخابراتها ولو أتت بنَا أمْريكا أو ربيبتها الصُّهيونية لما كانَ حالنا كهذا الحالِ الذي نعتز به و سنواجه الله سبحانه بقلب نظيف ويد نظيفة أن شاء الله و لو كانت أمريكا ودوائرها من أتى بنا لفضحتنا منْ أول يوم تصدينا لها، وكثير من الدول التي تنتقدنا علنًا يدعمون سراً عصابات من اللصُوصِ في نهب بلادهم ووضعوا دميً على مقاعد الرئاسة في بلاد عديدة للحفاظ على مصالحهم ولكننا لسْنا كهؤلاء نحن نجددُ مَجد أمتنا و نحققُ طموحاتِ شعبنا ونرفعُ راية وطننا بين الأمم شاءَ من شاءَ وأبَى من أبَى .

أغلقتُ الفيديو عند نهايته ثم أعدتُ فتحه فوراً وقد قفزت لذهْني فكرة غريبة.. ماذا لو استطعتُ الوصول إلى مُترجم الرَّئيسِ؟

ظهرَ الرجلُ النحيلُ في لقطةٍ عفويةٍ خاطفةٍ قربَ نهايةِ اللقاءِ، يبدو كبيرًا في السن ربمَا تقاعد وربما أستطيعُ اللقاء معه، فأمثاله يعرفون الكثير وإن كانوا خارجَ دائرة الضوء، وإن كان لا يسمح لهم بالتحدث عن طبيعة عملهم لضرورات الأمن والسرية فربما بعد وفاة الرئيسِ يكون التزامه قد سقط أو لا يهتم الأمن به أصلاً؛ فالشواغلُ والمخاطرُ كثيرة وهل يجرؤ على قول ما يستحق الكتابة؟ سأحاول الوصول إليه وأكتشف.

أبي

جلست بملابس المدرسة أنتظرُ عودته في المساء.

لم أتناول شيء ولا غسلت وجهي.. أعجزني الخوف والحرج من فعل أي شيء قبل أن أمد يدي المرتجفة إليه بورقة تطلب منه الحضور للمدرسة لأمرٍ عاجل.

وقفتُ أمامه بأنف دامٍ وشفاهٍ متورمة وعيون دامعتين صامتاً حتى سألني بهدوء:

– ماذا حدث؟

– تشاجرتُ مع أحدِ الصبية.. قال إني مهاجرٌ قذرٌ وأمثالي يمْلئون بِلادَهم بالقاذوراتِ فتضاربْنا.

تنهدَ وقطبَ حَاجبيه وهوينظر إليّ بغضب مَكتوم.

– أخبرتكَ مِرارًا ألا تحدث مَشاكل وأن تتجنب الأشقياء لماذا تداخلت مع هذا الولد؟

لم أرد وبدأت في البكاء.

زفر بضيق.

–لا تبكِ الأن...أراه قد أهانك وضربك أيضًا فهل اقتصصت لنفسك على الأقل؟

هززتُ رأسي نعم وأنا أنظرلموضع قدمي.

–حسناً لم أعبر بك البحر لتهانُ هنا بلا رد.. أن مسّ أحد بكرامتك فعليك أن تدافعَ عن نفسك. تنهدت براحة ولكنه استدركَ:

– ولكن هذا لايعنى أنك لست مخطئاً سأذهبُ للمدرسة غداً وأستوضحُ الأمر وايا كان، عليك أن تستمع لنصائحي وأن تتجنبَ الوقوع في المشاكل لتغدو رجُلاً مُحترماً لا يتضارب مع الأشقياء، سيكون هناك دوماً من يحاول استفزازك فإن استجبتَ له فلستُ أفضل منه.

الحريةُ كانتْ الكلمةُ المفضلة لدَى أبي وعندما كبرتُ قليلاً أدركتْ أنه خرجَ من بلادِه باحثًا عنها وأراد أن يَهبني ما حُرم منه ولهذا حاول غرسِي في هذهِ البلادِ كوطنٍ بديلٍ وإن لم يكن وجدَ لي أماً بديلة عن والدتي التي لا أمتلكُ إلا صورة باهتة عنها في ذاكرتي وحِفنة صور لها معي رضيعًا ومَع أبي أجعلُها في حقيبتي في كلِ ترحال.

هاجرَ أبي الطبيبُ البشري وأنا صغير في الخامسة تقريبًا، ولا أذكرُ الكثير مما كان في حياتي السابقة ولم يخبرني أبدًا ما سبب تركنا لبلادنا والهجرة، فقط كان يقول أردتُ أن تحصلَ على حياةٍ أفضل وأن تكون حرًا في أن تختار لحياتك المسارَ الذي تريد.

ولكنه كان يحرصُ على قطع كل صلة بيني وبين بلدي وحرص على أن أحصلَ على الجنسية ولا أختلطُ بأيٍ من أبناءِ وطننا حتى اللغة ظلَّ لسنوات يصر على ألا يحدثني بلغتنا الأم حتى نسيتها تقريبًا ولم أستعدْ ذاكرتي بها إلا في المرحلة الجامعية حيث تعرفتُ على بعض أبناء العربية يدرسون.. الإندماج في المجتمع الجديد كان هَدفه وأن لم يسألني أن كان هذا هدفي.

في نهاية سنوات مراهقتي احتددت عليه، انتبهتُ فجأة إلى غرابةِ مواقفي وأنا لا أعرف أي شيء عن تاريخي ولا أعرف أحد من عائلتي، نزق المراهقة جعلني أتهمه بالنفاق كيف يدعي أنه يريدني حراً وهو اختار لي مسار حياتي وفرضهُ عليّ ولا يخبرني حتى بأسباب نقله لي طفلاً كأصيصِ زرعٍ من بلد لبلد.

لم يظهر عليه الغضب ولا فقد صوته نبرته الهادئة وهو يجيبني:

-واجبُ الأب أن يبذل قصارى جهده في أن يضمن لأبناءه مستقبل أفضل من حياته، ويتخذ القرارات اللازمة لذلك في ضوء ما يعرفه بقدر طاقته نيابة عنهم في مرحلة الطفولة ثم يترك لهم اختيار مسارات حياتهم عندما يَحوزون النضج الكافى للاختيارِ العقلاني.. عندما كنت طفلاً قمتُ بالاختيار الذي رأيت الأفضل لمستقبلك، فلم يكن منطقيٌ أن أسأل طفلاً في الخامسة عن خططه المستقبلية، ولكنك الأن كبرت بما يكفي لمعرفة الحقيقة وأظنك ستتفق مَعي أنه لم يكن هناك من طريقٍ أخر.

أنت الأن تلومني على حرمَانك من عائلتك عندما اتخذتُ قرارَ الهجرة ولكن الحقيقة أنه لا عائلة لك.. هم لا يريدونك ولا يعترفون بوجودك، نبذوك كما نبذوني وأمُّك من قبلك.

قصتنا كانت أشبه بنسخة واقعية من روميو وجوليت.. شابان يدرسان في جامعة واحدة يقعَا في الحب ولكن عائلاتهم يكرهونَ بعضهما البعض كراهية عمياء، كنت يتيم الأبوين وعمي الذي تولى تربيتي والإنفاق على رفض بعنف فكرة زواجي مِن أمك كما رفضتني عائلتها باحتقار وغضب من جرأتي على مثلِ هذا الطلبِ.

ولكن حيث أن قصتنا واقعية فلم يمثل أحداً الانتحار بل هَربنا معًا بعد التخرج وتزوجْنا، لكنّ الأمرَ لم يكن سهلاً..

بالنسبة لي تبرأت عائلتي مِني وتناسَوا أمري، ولكن أمُّك كانتْ في خطرٍ داهمٍ طوالَ الوقت، فعِشنا بأسماءٍ مُستعارة وعملت بائع بأحد المِحلات في العاصمة بينما لازمت أمك البيت خوفًا من أن يتوصل أحد رجال عَائلتها إليها فيقتلونها انتقاماً لشرفهم الذي مرغته في الوحل بزواجها مني.

كانت قصتنا واقعية فلم نكن نعيش في جَنة ولم نكتفي بجُبنا عن العالم، كانَ الأمرُ قاسيًا خاصة على أمك التى فقدت كل شيء بارتباطها بي، وأصبحت حَبيسة أربعة جدرانٍ تنتظر عودتي نهاية اليوم بالقوت الضروري وهي التي عاشت حياتها كلها في رفاهية وفرض عليها الخوف أن تعيش في عزلة قاسية وهيَ الشخصية الأجتماعية المرحة، وفقدت طموحها المهني والأكاديمي لتبقَ في البيت الذي لم يكن إلا غرفةٍ صَغيرةٍ رطبةٍ في عقار متهالك بإحدى ضواحى العاصمة الفقيرة.. لم تكنْ سعيدة ولم أكن سعيد، أظنها فكرت مراراً في العودة لأسرتها وطلب الغفران ولكنك أتيت..عندما اكتشفتُ حملها دبَّ الأمل في قلبها من جديد وبدأنا ننظرُ للمستقبل بإيجابية أكثر وتشجعنا على الأستمرار بحياتنا الجديدة وعدم النظر للخلف.

بعد سنوات اعتقدنا أن الظروف اختلفت وأننا نستطيع أن نحيا بحرية دون خوف، فالزمن يُداوي كل الجراحِ وبالفعل التحقتُ بالعمل كطبيبٍ في أحد المشافي الخاصة معلنًا اسمي الحقيقي ومؤهلاتي وانتقلنا إلى شقة سكنية أفضل، بينما بدأتْ هي تبحث عن عمل ملائم بعد أن كبرت أنت قليلاً.

لم يكن صمت أبي لالتقاط الأنفاس، كان عاجزًا عن إكمال القصة ولكني كنت عاجزًا عن التوقف، ولم أستطيع التحملَ طويلاً وأنا أنظر إليه وهو مطرق صامت كالتمثال سألته "ثم ماذا حدث؟ "

– ثم ماتت.. قتلتها سيارة مفخخة في السوق، دون أن يعلن أحد مسئوليته عن الجريمة.

رفضت عائلتها استلام الجثمان ولم يحضرأيٌّ مِنهم جِنازتها، ولم يرغب بك أحد منهم.. كنتُ وحيداً مع طفل صغير في بلد صرت أكرهها وكل شيء فيها يذكرني بالموت والدمار والكراهية بلا أسباب.

كان الهدفُ الوحيد الباقي في حياتي هو إلا تتعرض لما تعرضتُ وأمك له وأن تعيش في بلد يحترم الأنسان ويسمح لك أن تحيا كما تريد وتحقق ذاتك وتكون سعيداً دون أن يكون ذلك معلقًا باسم عائلتك وولاءك الحزبي وتقلبات السياسة وصراعات العشائر والطوائف المجنونة، هكذا كانت تريد أمك وتتمنى لك أن تكون حُراً.

قرار الهجرة كان قرار الأستمرار في الحياة، لم أكن أستطيع أن أتركك تعيش في هذه البلد التي تسقط في بئر لا قعر له وأراك تتحول لجندى يحرق في سبيلِ شعارٍ سخيفٍ أو متحزبٍ تكرهُ الجميعَ أو جبانٍ يخشى أن ينجح في شيء أو يظهر تميزاً في أي مجال حتى لا يتحول لهدف للمتعصبين والمتنمرين الكارهين لأي شخص موهوب أو ذكي أو مجتهد.. منحتك الفرصة في أن تكون حراً وأن تختار لمسارِ حياتك ما تريد.

وقف متجهاً إلى غرفة نومه وقبل أن يخرج من الغرفة قال دون أن يلتفت إليّ:

– أنصحك أن تفكر في المستقبل ولا تشغل تفكيرك بالماضي، لا يمكنك تغيير الماضي ولكن يمكنك تغيير مستقبلك وجعله أفضل لك ولأبنائك من بَعدك.

الهَرَاوة

الطريق إلى المدرسة طويلُ ..

نصفُ ساعةٍ يومياً في الذهابِ ومثلُها في العودة كان الصبي يقضيها ماشيا على طريق مترب بين الحقول ما بين بيت زوج والدته في طرف البلدة والمدرسة الوحيدة بجوار مدخلها.

طفل يتيم يعيش مع والدته وزوجها وثلاثة أخوة غير أشقاء في بلدة ريفية تبعد قرابة ١٥٠ كيلو متر عن العاصمة حيث يجرى كل ما يثير الأهتمام.

كان الصبيُّ لا يزال في العاشرة ولكنة كان يدرك حقيقة وضعه، رغم انتمائه إلى عشيرة كبيرة ومؤثرة كان فقيراً ورث الفقر من والده الذي توفى دون أن يملأ عينيه منه ومن أمه التي تزوجت ابن عم لها توفيت زوجته عن ثلاث أطفال لينضم إليهم في تلك البلدة الميتة.

كانت الحياة الريفية الخاملة التى أمضى بها سنوات عمره القليلة قد رسمت صورة تقريبية لمستقبله الذي يماثل وضعية زوج والدته، يحوز قدر بسيط من التعليم يكفي لتعيينه في وظيفة حكومية هامشية في ذلك الريف الخارج عن إطار الصورةِ ويتزوج إحدى بنات عمومته وربما بمدخراته القليلة يجرب حظه في ممارسة التجارة أو يحاول حيازة قطعة أرض زراعية لعله يخرج من جانب العشيرة الفقير إلى جانب العشيرة الغنيُّ الوجيه مَرهوب الجانب.

لم يكن الصبي يعاني كثيرًا ولم يكن في أسوء حال فقد كان يذهب للمدرسة بينما يتحول أغلب من هم في مثل سنه إلى ديدان أرض، ولم يكن زوج والدته يسىء معاملته ولا معاملتها وإن كان مشغولاً عنهم باستمرار في سعيه الحثيث ليكون اسمه مذكوراً بين أبناء العشيرة الأقوياء ومحاولاته التجارية التي تفشل غالبًا وتأكل من مدخراته القسم الأعظم، وتنجح أحيان قليلة فتغريه بأعادة الكرة والمغامرة بمبالغ أكبر كالمقامر.

لم يكن أفقر صبي في المدرسة ولا أذكى صبي بها ولا أطولهم قامَة ولا أضخمَهم جثة، بل كان متوسط في كل شيء، وحتى وسامته كانت ذكورية تشي بأنه سيكون رجل حسن السمت بعد سنوات قليلة ولكنها لم تكن زائدة عن الحد،

فلم تكن حصته من تنمر الصبية على بَعضهم يزيد عن المتوقع لمن هو في تكوينه وظروفه، فلم يكن به ما يبرز فيجعله هدفًا للمتنمرين الذين كان أبرزهم أخوين أكبر منه سنًا وحجمًا من أبناءِ أكبر عائلاتِ المدينة.

وهكذا كانت أيامه تمرّ بدونَ أن يلفت انتباه أحد إليه، حتى ذلك اليوم..

في طريقه المعهود إلى المدرسة وجد عمود حديدي قصير أقرب للهراوة ملقى على جانب الطريق، لماذا أخذه ووضعه في حقيبته المدرسية؟ لأن ذلك كان قدره..

بنهاية اليوم الدراسي كانت والدته وزوجها قد تم استدعائهم إلى المدرسة لأول مرة حيث استعمل الفتى الهراوة التي وجدها في تحطيم رؤوس الأخوين المتنمرين وأصابهما إصابات شديدة أوصلتهما إلى المشفى على وجه السرعة بينما تم التحفظ على الفتى الذي فوجيء أساتذته بسلوكه العنيف المفاجيء.

وبعد اعتذارات متعددة وتوسط أهل الخير وافق أهل الصبيان على المصالحة شريطة أن يرحل ذلك الفتى عن المدرسة وقد كان.

أرسلته امه التي تخوفت عليه من انتقام أهل الصبيان المتنفذان ومن وقوعه في مشاكل جديدة إلى خاله بالعاصمة ليرعاه فانفتحت له أبواب الدنيا وتغير مسارَ حياته للأبد.

كانت الهراوة سبيله فظل دائمًا يذكرها وقد حفرت في وجدانه علامة بارزة.. لم يكن أحد يشعر به أو يراه متميزًا ولا يَلق إلا القليل من الأشفاق لكونه يتيم فقير وقليل من التنمر ممن هم أعلى منه منزلة ولكن الهراوة جعلته يرى في أعين زملائه الذين لم يكن أحد منهم يشعر بوجوده نظرة جديدة.. وجدهم لأول مرة ينظرون إليه بإعجاب واحترام.

علمته الهراوة الدرس الأهم في حياته.. لن يحز الأحترام إلا أن حاز القوة.

كانت طفولته في البلدة التي تحملُ سمات المجتمع الإقطاعي قد تركت أثراً لا يمحي فِي نفسه، رأى الناس ينقسمون لقسمين قسم ملاك الأراضِي الأثرياء الذين يمتلكون القوة والسطوة وقسم أولئك الذين يعملون لديهم أو في وظائف طفيلية تتعيش على فائض ثرواتهم ولا يملكون أن يرفعوا رؤوسهم في حضورهم، شهد تحالف الجَهل والفقر يزدري بالإنسان ويحط من قدره و يمنعه الكرامة وشهد الأثرياء والأقوياء يتكبرون على الفقراء ومن يرونهم أدنى منهم منزلة

ويزدرونهم و يقسون عليهم لفرض سطوتهم وإثبات وجودهم ورأى من يقع عليهم القمْع يتحملون ويقبلون تلك القسوة باعتبارها طبيعة الأشياء، لا شيء فيها يستحق الأعتراض.

تعلم مبكراً أنه في المجتمع الجاهل الأذكياء ممقوتين والمثقفين محتقرين ولا معيار يحددُ موضع الإنسان في السلم الاجتماعي إلا ما يحوزه من سلطة وثروة، وأن القوة فقط ما سيمنحه الاحترام.

تعلم مبكراً أن الناس قامعٌ ومقموعٌ وعزم على إلا يكون إلاخير.

وفي منزل خاله " عزيز" ضابط الجيش السابق الذي أحيل للتقاعد مبكراً لانخراطه في السياسة فتحول إلى صحفي وخطيب وكاتب شهير يشارك في مبارزات الأحزاب ومناظرتها ويجعل بيته منتدى يجمع الساسة والمثقفين ليناقشوا الشأن العام والأفكار الكبيرة والصغيرة، تعلم الصبي الذي صار شاباً مفعماً بالحيوية العديد من الدروس ولكن لم يكن أيّ منها في أهمية الدروس التي تعلمها صبياً.

وبعد الثانوية حاول الالتحاق بالإكاديمية العسكرية ولكن طلبه رُفض ووجد نفسه عاطلاً وبلا مستقبل واضح بينما كان مستقبله السياسي تحدد بالتحاقه بالحزب القومي الأشتراكي حديث النشأة قليل الأعضاء وقتها، والذي التحق به خاله أيضاً واصفاً إياه بحزب المستقبل الذي يجمع شباب الوطن الطموح الذي يحمل روح العصر وغير ملوث كالأحزاب التي قامت في كنف الأستعمار أو الملكية ولهم عليهم يد أو بهم لهم أصابع.

عام مضى وهو يدرسُ الأدبَ في الجامعة بلا حَماس، قبل أن يستيقظ ذاتَ صباح على صوت وزير الدفاع في الأذاعة يعلن أن الجيش قد حرّر البلاد من النظامِ الفاسدِ الذي أقامته الأمبريالية وألغَى الملكية.

ذبح الضُّباط الغاضِبون العائلة المِلكية وشَنقِ قادة الجيشِ والأجهزة الأمنية والعديد من الوزراءِ والسياسيين والشخصياتِ العامة وتفجر حَمام دمٍ راحَ ضحيته الألاف في قربانٍ للعهدِ الجديد، ولكنه كان يعيشُ أسعد أيامه.

قفز الحزب الجديد الذي لم يكن أعضاءه يَتجاوزن بضع مئات إلى الصف الأول من مقاعد السلطة بدعمه المطلق للانقلاب وزعيم الضّباط "عبد الكريم"الذي كافأهم بمناصب متعددة وفتح أمامهم الأبواب ودخل إلى الأكاديمية العسكرية ولكنه الآن كان يريد ما هو أكثر، فلم يعد يحلم بأن يكون مجرد ضابط، بل أصبح التواجدُ الحزبي وممُارسة

السياسة وترسيخ أقدامه بها على رأس أولوياته.. كانت رحلته قد بدأت وقريبًا سيعرف العالم كله اسم (عليٌّ مُهاب الدين).

لستُ عاهرة

الرواية الرسمية تقول إن ابن الرئيس الأصغر" عمر " توفي في حادث أليم حيث انحرفت من يده عجلة قيادة السيارةِ الرياضية التى يقودها في إحدى الطرق الجبلية فانقلبت وسقطت في الوادي وماتَ الشابُّ الرِّياضي الوسيم أثناء تدربه على رياضة سِباق السيارات التي عشقها وأقيمت له جنازة مَهيبة وامتلئت الصُّحفُ بإعلاناتِ التأبين ومشاطرة الأحزان.

لكن الرواية الأخرى التى همس بها سراً أن ابن الرئيسِ قُتل اغتيالاً على يد أبناء إحدى العشائر التى تمادى في إذلالها والإساءة لها.

سمعه الأبن الأصغر السيئة كانت أكثر من كافية لإشاعةِ روايةِ اغتياله، خاصَّة وأنها لم تكن المرة الأولى التى حاول فيها أحد ضحاياه الأنتقام لشرفة بسفك دماءه.

فعندما سمعت باسمه لأول مرة كان ذلك في خضمِ فضيحةٍ كبرى، فقد كان الأبن الأصغر مغمورًا خاملَ الذكر ليس كأخيه الأكبر دائمَ الظهور في المناسبات العامة والذي تولى مناصب قيادية هامة متعددة في الحزب الحاكم، حتى تولى منصب أمين الحزب ورئيس لجنة السياسات به لخمس سنوات قبل وفاة الرئيس بعد أن ترك له والده هذا المنصب الذي لم يجرؤ أحد على منازعته فيه منذ تولاه، وقتها علم الجميع أنه الرئيس القادم وبدأت صور الدكتور ابن الرئيس تزاحم صور والده في العاصمة، وكان هذا الشاب الوسيم الذي ورثَ من والده زرقة العينين وحِدتها يحرص على الظهورِ الأيجَابي بين النّاس ممهدًا لميراثِه الثقيل.

لكن الصغير الذى لم يكن يظهر إلا في المناسباتِ الفنية والرياضية خاصَّة الكُروية، لم يكنْ سر أبيه ولم يرث منه لا زرقة العينين ولا حدة الذكاء والشخصية ولا سمت رجل الدولة بل كان نموذج مثالي لأبناء الأثرياء المدللين والرجال الأقوياء الذين لم يجدوا وقتًا لتربية أبنائهم، فبينما كان في أوروبا يدرس في جامعاتها و يحوز الشهادات كما يدعي الأعلام الرسمي و يعيش حياة النخبة المترفة المنغمسة في الشهواتِ والملذاتِ في الواقع تسربت للصحافة الأوربية مقاطع فيديو له بفيلا بإحدى المدن الساحلية مع بعض رفاقِه وفتيات يشربون الخمورَ ويتعاطون المخدرات ولكن الفضيحة كانتْ في مقطع مصور له وهو يلق بالفتيات من أعلى سطح الفيلا إلى المسبح ضاحكين مُنتشين، ولكن تلك

الضحكات انقطعت عندما أفلتت إحدى الفتيات فبدلاً من أن تسقط داخل المسبح سقطت خارجه لتتهشم رأسها فورًا و يَملأ الدم المشهد الذي كانَ من لحظةٍ واحدةٍ يعجُّ بالضَحِكات المِاجنة .

أموال طائلة أنفقت و ضغوط دبلوماسية وإجرامية عديدة مورستْ حتى يغلق ملف هذه القضية و أيدي عديدة قوية بذلت جهداً عظيماً لسد فم الحقيقة وكتم صوتها وإخراج ابن الرئيس من جريمته و فضيحته الموثقة وطمرها تحت الترابِ، ولكن حتى بعد السماح لابن الرئيس بالعودة إلى بلاده بلا توجيه إتهام شريطة أن لا يعود لزيارة تلك البلد ثانية، ظلت الفضيحة تتردد طويلاً وألقت الضوء على الحياة الصاخبة للإبن خامل الذكر والذي لفت الأنظار إليه أخيرًا بهوايته في افتعال المشاكل و ارتكاب الفضائح وإن كان أصبح يمارسها داخليًا بعد أن منعه والده من السفر ثانية.

بعدها بسنوات أطلق عليه مجهولين وابلاً من الرصاص وهو يتجولُ بسيارته في الشوارع الخلفية للعاصمة قرب الفجر بصحبة صديقة الحميم أو قواده كما كان يُقال؛ قُتل الصَّديق على الفور وأصيب ضابطا الحراسة في المقعد الخلفى بجروح جسيمة بينما اخترقت الرصاصات صدره وذراعه واستقرت واحدة في فخذه ومزقت أخرى وجهه قبل أن ترغم رصاصات رجال سيارة الحراسة الثانية المجهولين على الفرار قبل تأكدهم من اتمام المهمة.

أنقذ الأطباء حياته بأعجوبة ولكنه ظلّ يعرجُ، يتلعثمُ، ووجهه الذي حاولتْ عمليات التجميل إعادته لا يبدو طبيعيًا على الأطلاق.

ضجّ الأعلام الرسمي بالحديث عن المؤامرة الأجنبية التى استهدفت اغتيال ابن الرئيس البار انتقامًا من والده الذي أعجز الأمبريالية والاستعمار وهزمهم مرارًا وأعلن إلقاء القبض على العشرات من العملاء المنخرطين في مؤامرةٍ لضرب استقرار البلاد واغتيال قيادتها، ثم صدرت الأوامر بالكف عن ذكر الحادثةِ ووضعِها في خزائن النسيان المغلقة.

و لكن الشارع ظل يذكرها ويخترعُ لها تفاصيل دقيقة ويربطها بحوادث أخرَى حقيقية أو متخيلة كان أشهرها أن الأبن الأصغر الذي أدمن تجميع السيارات الفاخرة و الحسناوات على حد سواء ككل ثري مصاب بعقدة نقص والذي ورث من والده التصميم في الحصول على ما يريد مع الفارق في الطموحات، كان يتناول طعام الغداء في مطعم فندق الرشيد الشهير بوسط العاصمة فلفتت نظره سيدة فائقة الجمال ولم يعبأ بكونها جالسه مع زوجها ضابط الجيش في زيه

الرسمي فدعا نفسه إلى مائدتهما قبل أن يسحبها إلى الجناح المخصص له بالفندق بينما طوق حراسه زوجها المغدور الذي غادرَ الفندق بهدوء ليُطلقها رسميًا بينما قفزت المِسكينة بعد أقل من سَاعة من نافذة الجناح بالطابق السادس إلى حتفها .

لم أكن أهتم بالإبن الصغير فلم أكن صَحفي فضائح والصغير لم يكن له شأن سِواها ولكني كنت مهتمٌ بسناء.

في معرض فني بلندن كان لقائنا الأول، كان الملل قد تسرب إلى نفسي وبدأت أشعر بالندم على ذهابي لمعرض لوحات لأحد معارفي بدلاً من تمضية الليلة في مشاهدة مسرحية أو فيلم أو حتى الجلوس بإحدى المقاهي، وبينما أتجول بعيون يملؤها السأم ما بين لوحات لا تثير في نفسي أي مشاعر ووجوه الحاضرين وجدتها فتوقفت وتوقف الزمن.

سناء جميلة جداً، وجمالها من ذلك النّوع النّادر الذي يصعب وصْفه، فلا يمكنك أن تكتفي بوصف اعتدال قوامِها وطول شعرها ونعومة بشرتها وسواد عيناها، وتظن أنك قد وفيت جمالها حقه، بل هناك شيء آخر بها يجعلها كأميرة من أميرات ألف ليلة لا ينقصها إلا التاج يتزين برأسها، جاذبية خاصة تحيطها بهالة من الغمُوض تجعل الرؤوس تدور من حولها لتكون مركز اهتمام أي مكان تتواجد فيه.

وصدقاً لا أعرف كم مر من الزّمن وأنا أحدق بها قبل أن يناديني الصديق صاحب المعرض والذي كان واقفًا بجوارها ينخرط معها وآخرين في حديثٍ باسمٍ وأن لم أكن رأيت غيرها ويمنحني فرصة التعرف عليها.

ولكن بمجرد أن نطق أسمي مصحوباً بكلمتي صحفيّ ومن بلادك حتى اختفت بسمتها المجاملة وحتى كلمة مرحبًا لم تخرج من شفتيها الصامتين.

ما أقسى أن يشيح عنك ذلك الوجه الصَّبوح!

لم أعرف عنها تلك الليلة إلا اسمها الأول وأنها رسامة ثم انسحبت بهدوء قبل أن تسنح لي الفرصة لمحاولة بدء محادثة قصيرة.

قاومت رغبة ملحة في أن الحق بها وأنا أراها تخرجُ من باب المِعرض لأنني لم أعرف ماذا أقول لها!

بعد ثلاث ليال من الأرق وجدتها، بعد تمشيةٍ طويلةٍ دخلت إحدى المقاهي لأجدها جَالسة وحيدة بها ولم أتردْ هذه المرة وتقدمت إليها مدفوعًا بقوة القدر الذي جمعنا.

– مساءُ الخير سيدتي.

رفعت إلى وجهها بنظرة مستفهمة، ظننتها لا تتذكرني فاستطردت مبتسماً.

– أنا آدم تقابلنا يوم الثلاثاء الماضي بمعرض صديقنا تيموثي.

بحواجب مرتفعة ولهجة متعالية أجابت " وبعدْ "؟

لم يسقط سطل الماء المثلج على رأسي مرات عديدة ولكن تلك المرة كانت أقساها، لعنتُ سوء فهمي للأقدار الذي جعلني أقف كالأحمق هكذا أمام طاولتها وآثرت الأنسحاب بكرامتي وقبل أن أوليها ظهري قلت:

–معذرة لأزعاجك من الواضح أن الوقت غير مناسب.. أتمنى لك ليلة سعيدة.

استوقفتني فوراً:

–انتظر.. أرجوك تفضل بالجلوس.

جلست قبالها مبتهجاً وقد أعدت النظرِ فِي تقدير فَهمي للأقدارِ ثانيَّة.

–أرجو أن تغفر لي سوء أدبي فلم أرحلْ عن بلادنا لتلحق بي هنا ولهذا فلا أحب الأختلاط بأبناء بلادنا كثيراً.

بلهجة مرحة قلت:

–ولكني تركت البلاد وأنا طفل في الخامسة، كنت أظن لكنتي تفضحني.. أن العربية لغتي الثانية في واقع الأمر فلا أعتقد أنه من العدالة اعتباري من أهلِ البلاد التي لا أتقنُ لغتها ولا أحمل أوراق ثبوتية بجنسيتها.

–وكذلك مسألة المهنة.. الصحفيين يعتبرون كل من يرونه قصة ولا أحب أن أعتبر قصة.

أجبتها ضاحكاً:

– لا إشكال في الأمر فأنا طباخ ماهر بشهادة جميع أصدقائي ويُمكنني الحصول على عمل جديد في أحد المطاعم أن لزم الأمر.

انفرجتْ أساريرها أخيراً عن ضحكة صغيرة كانت أكثر من كافية لجعل ليلتي الأجمل.

تعددت لقائتنا بعد ذلك وتدريجيًا بدأت الحواجز بيننا تتلاشى.. الحواجز التي وضعتها سناء فقد فتحت لها أبوابى كلها من أول ليلة وبلا خجلٍ أو مواربةٍ أخبرتها بقصة حياتي كاملة بكل التفاصيل التي حضرت في ذهني.

بسجل عاطفى هزيل وزيجة فاشلة لا أطلق على نفسي خبير علاقات عاطفية ولكن قد يكون الأنفتاح وبذل الثقة أيسر سبيل لكسبها، فإن كنت تريد تحويل علاقاتك بامراءة ما من سطحية إلى ما هو أكثر فعليك أن تفتح لها قلبك وتمنحها ثقتك وتأتمنها على أسرارك وتلقائيًا ستفعل المثل.

ولكني لم أكن أفتح قلبى لسناء مصطنعًا محاولاً بخبث الأيقاع بها، كانت عاطفتي تجاهها صادقة وان لم أكن أدرك ماهيتها هل هي الحب الحقيقي أخيراً أم أمر آخر يشبهه بشدة؟

ورغم كثرة لقائتنا حيث لم أكن أتركها إلا بعد تحديد موعد وإن حاولت التهرب وثرثرتي الدائمة إلا أنني لم أحاول أبدًا سؤالها عن ماضيها.. كنت أعرف أن ورائها قصة، كل المهاجرين لديهم قصص وأغلب قصصهم حزينة وعندما تكون غامضًا تتجنب الحديث عن ماضيك ولا تحب الأختلاط بأبناء بلادك فالقصة بالتأكيد حزينة جداً.

لا فضولي الصحفي ولا الشخصي دفعني للسؤال.. صدقًا لم أكن أريد أن أعرف شيء، كان يكفيني أنها الأن معي ولم أكن على استعداد لتهديد أملي في أن تبق معي بفتح صفحات ماضٍ قد يؤذيها فتحها.. ولكنها فتحتها.

بعد شهور من لقائنا الأول فاجئتني باتصال تليفوني وأخبرتنى أنها لا تشعر بالرغبة في الذهاب للسينما الليلة كما خططنا ولكن تريدني أن أذهب لبيتها إن كنت راغباً.

وبالطبع كنت راغب كنت أرغب في أن أكون معها بأي شكل ولهذا لم أمتعض أن علاقتنا لم تتطور سريعاً كما تمنيت وبقيت في إطار الصداقة.

ليلتها تناولنا عشاء منزلي شهي وجلسنا نحتسي الشايَ في غرفة المعيشةِ وبدون مقدمات قالتْ لي:

-أظن الوقت المناسب قد حان لتعرف قصتي كما أعرف قصتك.

لم يكن هناك شيء لأقوله فسكتُ وتركتها تحكِ القصة من بدايتها..

أظنني كنت في السادسة من العمرعندما ظهرَ الرئيس على شاشة التلفاز ليعلن أنه أصبح الرئيس.. لم أفهم شيء مما قال ولكنى أحسست برهبة من هذا الرجل ذو الصوت الهادىء والشارب الكث والبحر الجليدي مكان عيناه..وعندما التفتُ لوالدي وجدت وجهه يفيض بالخوف..قد يكون الرئيس مخيفًا بالنسبة للكثيرين ولكن والدي عاش طيلة عمره في خوف..خوف من اللصوص أن يسرقوا جواهره وذهبه وخوف من الضرائبِ وخوف من عدوان المتنفذين وحتى الشرطيّ الصغير أن مر بأحد محاله يتودد إليه بأزيد من اللازم رغم أن زبائنه من علية القوم وكل قيادات الدولة وحتى عائلة الرئيس منهم، إلا أن أبي كان دومًا يتوقع الأسوء فإن مر بسيارته بجوار أطفال يلعبون الكرة تصور أن أحدهم سيركلها في وجهه بالخطأ.

دائمًا كان هناك من يصرخ ويتوعد في التلفاز ولكن هذا الرجل الجليدي لم يكن يصرخ أو يهدد بل يصف بهدوء أقرب للحيدة ما سيفعل بأعداء الوطن بلسان المتيقن وليس المهدد.

يومها تنهد أبي وقال لنفسه بصوتٍ عالي:

-أيام صعبة طويلة تأتي على هذا البلد.

ولم يكن مخطئاً فعلى الرغم من ثراء أبي وعائلتي الكبير إلا أن سنوات الحرب عرفتنا لأول مرة على الحرمان فقد وضعت العديد من القيود على الكثير جدًا من الحاجات الكمالية و الجمالية بحسب رأى مسئولي الحزب فوجدت نفسى أضطر للاستغناء عن العديد من أدوات الرسم التي تعودتها و استبدالها بأخرى ذات جودة أقل و كذلك أنواع مستحضرات التجميل والشيكولاتة التى كانت تهرب بانتظام ولكن يقتصد أبي في الحصول عليها حتى لا يلفت الأنظار إليه وهو أكثر رجل عرفته في حياتى يريد الأختفاء عن الأنظار و لولا أنه ورث مهنة تجارة الجواهر وما صاحبها من ثروة و سمعة لكان قضى حياته موظفًا هامشيًا يطيع الأوامر ولا يتكلم فيما لا يعنيه .

وسرعان ما بدأت الدنيا تتغير وأول تغيير احسسته عندما فرض علينا أطفال المدارس أن ننتظم في إنشاد الأناشيد الحماسية التي تتغنى بالحزب والثورة والرئيس كل صباح وأصبح جانب كبير من اليوم الدراسي مخصصًا لارتداء الأزياء

الموحدة والتدريب على القيام بالاستعراضات الفنية والرياضية في ذكرى الثورة وذكرى تشكيل الحزب وعند زيارة الشخصيات الكبرى وقيادات الدولة ومن لا يظهر الحماس الكافي كان يعرض عائلته للمسائلة من قبل منتسبي الحزب الذين يستدعونهم للمدرسة ويوبخونهم أولاً على مرأى ومسمع من أطفالهم والجميع على سوء تربيتهم وعدم قيامهم بواجباتهم الوطنية وأن لم تكن اعتذراتهم تبدو متذللة بما يكفي أو تكرر ضعف حماس الطفل ينقل إلى مدرسة أخرى وحسبما سمعت يتعرض والداه للاعتقال لأنهم يزرعون في أذهن أطفالهم أفكاراً مناهضة للثورة !

ومثلما كنت أكبر في كل يوم كان وجود الحزب يكبر معى حتى ملأ كل تفاصيل حياتى..في كل مكان كانت تحاصرنا الصور واللافتات بشعارات الحزب وفي كتبنا المدرسية وأنشطتنا وفي الحافلات والأسواق وعلى شاشات التلفاز وأثير الراديو..وسرعان ما تحول الأنتماء للحزب إلى ميزة ووسيلة للنجاح ثم إلى شرط للوجود..وأصبح على كل شخص أن يبرهن على ولائه للحزب وإيمانه المطلق بأهداف الثورة وتأييده غير المشروط لهما وإلا وقفت حياته فدرجة الولاء للحزب هى أول مسوغات التعيين وشروط الترقية أو حتى البقاء في الوظيفة وضمان إلا يقرع بابك ليلاً أصحاب البذلات السوداء.

لم يعد يمكن للشخص أن يقول إنه مستقل لا ينتمي لأحزاب أو لا يهتم بالسياسة كان يجب على الجميع أن يعلن بوضوح تأييده للنظام واستعداده للتضحية بأبنائه وشرفه في سبيله.

كانت القوانين تُصاغ وتُلغى بحسبِ موافقتها لسياسةِ الحِزب وكذلك المعايير في تقييم الأشخاص فلا يهم ثقافتك أو تعليم أو خبرة الشخص بل المعيار هو وطنيته، والوطنية لم تعد تعني إلا الولاء المطلق الأعمى للحزب الذي هدم ما قبله من تاريخ وقيم اجتماعية وعادات وتقاليد.. وفي كل مكتب أو مصلحة أو مدرسة أو سوق وكل مكان أصبح يوجد شخص ما يمثل الحزب هو مركز الثقل في هذا المكان لا يمكنك الأنتفاع بخدمات أو قضاء مصالحك إلا أن حُزت رضاه أولاً.

كان الحزب لا يهمه إلا الأنتماء والولاء المطلق له في أعضاءه ولهذا كان يقبل أي شخص مهما كان منحطًا وضيعًا ويسمح له أن يترقى ويصبح ذو حيثية إن كان ولائه للحزب فوق ولائه للأسرة والدين وأي شيء..أصبح الحزب مصيدة ذباب كهربائية تجتذب هؤلاء الذين لا يعرفون خلق ولا أدب ولا حدود لشبقهم للسلطة والتحكم في الناس وإذلالهم وهكذا أصبحت الدولة إلى مَافيَا تحملُ شعارات سياسية زاعقة تجتذب صغار المجرمين والأشقياء وتحولهم

لأذرعها الممتدة التي تنشر الرعب في قلوب الجميع مقابل الحماية والسلطة والمال والمناصب ومنع الشعب بأكمله من السفر للخارج إلا قلة من المتنفذين فأصبحنا جميعًا داخل سجن كبير.

ولكني لم أكن أشعر بوطأة شيء من هذا كنت طفلة مُدللة ثم مراهقة مدللة اهتماماتي كانت بالرسم ثم بالموسيقى ثم بالأزياء واللهو مع صديقاتي حتى التحقت بالجامعة وانفجرت الفقاعة التي كنت أعيش بها وأدركت أنني كنت ضمن فئة ضئيلة جداً من المحظوظين.

وعلى الرغم من أن الجامعة كانت معقلاً لمهاويس الحزب، إلا أنني وجدتُ هناك حياة جديدة لم أكن اجتماعية وظل دائرة أصدقائي ضيقة للغاية لكن أمواج الشباب مختلفي الخلفيات والطبقات حولي فتحت عيناي على واقع لم أكن أشعر به.. عرفت أننا نحيا في دولة بوليسية وأن الحديث في السياسة، وإن لم يكن من اهتماماتي أمر خطير والحديث بخفة عواقبة وخيمة، كما وجدت الكثير من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة الذين لم أكن أختلط بهم أبدًا ووجدت عندهم غضبًا وحقد شديد على الطبقات الثرية.

لم يكن لدي وعي سياسي كافي بل كنت ساذجة للغاية مقارنة بوضعى الأن، ولكن بعض الأمور لا تحتاج الكثير من الذكاء لاستيضاحها..فعندما تجد شخصًا غاضبًا باستمرار متحمس للحرب والصراع مع طبقات أو طوائف أخرى يعلو صوته باستمرار بشعارات لامعة في معظمها عنيفة تعرف أن هذا الشخص ليس على ما يرام..عندما تكون حالتك النفسية جيدة تكون أكثر هدوء وتسامحاً وتقبلاً للأمور كلها، ولا تحتاج للصراخ لبيان وجهة نظرك..في الجامعة كان الجميع يصرخ والجميع غاضبون وفي الوقت نفسه الجميع خائفون..وربما خوفهم ما جعلهم غاضبين وأشاع حالة التوتر العنيفة في الجامعة التى يفترض أن تكون نموذج لمستقبل البلاد..في الجامعة كان الطلاب يخشون أعضاء هيئة التدريس فيتملقونهم باستمرار ولكن أعضاء هيئة التدريس كانوا يخشون الطلاب بدورهم وربما أكثر فمن ضمنهم كان منتسبي الحزب بشكل علني ومخبريه السريين وهؤلاء يمتلكون سلطة مخيفة وبعبارة واحدة في تقرير يرفعونه لقيادتهم يمكنهم أن يقضوا على مستقبل أي طالب أو أستاذ.

وفى الجامعة سمعت عن الأختفاء..أن يخرج الشاب أو الفتاة من منازلهم في الصباح أو يزورهم الرجال مرتدي السواد في الليل ويصطحبونهم معهم بدون أن يقولوا لأين ثم يختفون تماماً، تقول الشرطة أنها لا تعرف عنهم شيء عندما يسأل أهلهم ولا يراهم أحد وتدريجيًا تمحى أسمائهم من السجلات الرسمية كانهم لم يوجدوا أبداً، من كان منهم طالباً

لا تجد اسمه في قوائم طلاب الجامعة ومن كان موظفًا لا تجد اسمه في كشوف موظفي الهيئة التى كان يعمل بها وينكر زملائه ورؤساءه السابقين أي معرفة به..مصير مخيف ربما أكثر رعبًا من حالات تعرض فيها شباب لامعون للضرب للوحشي في أزقة مظلمة واختطفت فتايات وأغتصبن لإذلال عائلاتهم وعشائرهم.

ولكني كنت في مأمن من ذلك كله.. يخيفنى ما أسمع كما أخاف من رواية مرعبة أو فيلم، تبرعات أبي السخية للحزب والقائمة التى كان يحدثها باستمرار للمتنفذين الذين يحرص على كسب رضاهم بالهدايا الباهظة وبعدنا عن السياسة والظهور أكثر من اللازم كان يجعلنا في أمان.. هكذا كنت أظن ثم قابلت عمر.

صدفة.. ككل شيء يحدث في الحياة، تصادف أن تواجد في النادي الذي أرتاده لمشاهدة مبارة رياضية ما، وفي طريقي للخروج رآني وأعجبته فتقدم للتعرف عليّ بلا تردد، فما الذي يجعله يتردد؟

منذ بدأت الدراسة الجامعية والعديد من الشبان يحاولون التعرف عليّ، وكنت أصدهم بلطف وأكتفي بدائرة أصدقائي الصغيرة ولكن لم يحاول أحدهم التعرف على من قبل وبرفقته حرس من ضباط مسلحين ولم يكن أحد منهم ابن رئيس جمهورية.

عندما أوصلني للمنزل هذه الليلة أخبرت والدي بما حدث ورأيت الموت في وجهه.. نظر إليّ بفزع وكأنه فقدني فجأة.

ربما لو كانت والدتي مازالت حية لساعدتني في معرفة ماذا أفعل، لم أكن أفهم بالضبط ماذا يريد عمر مني هل يريد صداقتي أو الزواج مني أو شيء آخر ولكن والدي كان يعرف ماذا يريد عمر مني بالضبط ولم يكن يستطيع فعل شيء.

هل تعرف احساس أب شرقي وهو يشاهد ابنته تخرج كل ليلة وتعود للبيت بسيارة شاب غريب لم يكلف نفسه بإلقاء التحية عليه يوماً؟

عندما أتى عمر لاصطحابي من منزلنا لأول مرة سألته هل يريد الدخول والتعرف على والدي فأجاب بدهشة حقيقية لماذا؟

لست عاهرة وليس أهلي بقوادين.. نعم عرفوا أنه يريديني كرفيقة وأني لن أكون له زوجة وكذلك فهمت ولكن ما العمل؟

كنت أتمنى أن يحميني أبي أن يقف معترضاً ويثور مدافعًا عن شرف ابنته وإن كان ثمن ذلك حياته وحياة أخوتي وحياتي أيضاً ولكنه لم يفعل.. غلب عقله قلبه واكتفى بأن يتمن لي الخروج من التجربة بأقل خسائر وبقي يزوى ويموت ببطء ولا يجرؤ أن يتطلع في عيناي.

عائلتي الكريمة اعتبروني ضيفة ولست ابنتهم، كنت رفيقة عمر، هكذا كان وصفي وهكذا أصبحت أعرف، حتى أخوتي تنكروا لي وأداروا لي ظهورهم ومن كنت أظنهم أصدقائي أختفوا من حياتي فجأة.

لست عاهرة فلم أطلب منه شيء أبدًا ولم أحاول الأستفادة من نزوته ولوعلى سبيل التعويض.. جسدي ليس للايجار ولست شيء يُباع ويُشترى.. ولكن لم يكن أحد يراني هكذا، كنت قد أصبحت ملكية خاصة لعمر، شيء من أشياءه العديدة.

لم يغتصبني بالمعنى المعهود المرتبط بالعنف الجسدي، أردت أن يتم ذلك بشبه قبول مني.. لم يكن لدي خيار وكان تمنُّعي بدأ يثير أعصابه ويظهر جانب آخر منه لم أكن أريد رؤيته.. أعرف أن الترهيب يجعله اغتصابًا ولكني أردت أن أوهم نفسي أن لي من الأمر شيء ولم أتركه يرى دموعي أبدًا، لم يكن سادي أومتوحش على الأقل معي ولكني أعرف أنه كان يستطيع أن يكون هكذا إن أراد.. كان طفلاً يريد اللعب وكنت دمية جديدة يتسلى بها إلى أن يملها فيرميها بعيداً.

لو كانت أمي حية لبكيت على صَدرها طويلاً.

أصبح العالم سجناً، لم أعد أطيق المنزل الذي أعود إليه في آخر الليل لأغلق على نفسي غرفتي لليوم التالي، لم أعد أتحملُ نظرات الجيران وهمساتهم من خلف ظهري، لم أعد أحتمل أن أرى أناس تراني عاهرة، أصبحت أكره الجميع وأحقد على الجميع، وكيف أحب أحد وأنا أكره نفسي وأحتقرني لأبعد الحدود.

تغيرت.. لم أعدْ تلك الفتاة المدللة التي ترى العالم بمنظار وردي، أصبحت كئيبة وظلامية أتمنى أن تقع السماء على الأرض وتسحق الجميع.

ولعل هذا ما أسرع بزهد عمر في صحبتي التي لم تعدْ مسلية، فلم أعد فتاة بريئة بل نمت بداخلي كزرع شيطاني روح عجوز شمطاء حاقدة تكره الناس والحياة وأصبحت امرأة مسمومة.

وتركني عمر كمنديل مستعمل، فلم أعد مصدر للمتعة التي كرس حياته للبحث عنها ولم يكن بمقدوري أن أعد لحياتي السابقة فتلك الفتاة قد ماتت وانتهت وكان الخيار الوحيد لي للبقاء هو الرحيل عن تلك البلد وترك كل هذا الظلام خلف ظهري والبدء من جديد.

بحثت عن جامعة تقبلني وعندما وجدتها فخاطبت والدي فورًا أنني أريد أن أدرس الفنون بالخارج كان في عينيه سؤال يجرحني ولم يستطيع أن ينطق به فأجبته أن عمر موافق وسيساعدني في الحصول على جواز سفر وفتح حساب بنكي بالخارج ولكني أحتاج المال الذي سأحوله لأستطيع بدء دراستي به.

منحني أبي ثروة أظنها تعادل نصيبي في ميراثه أن لم تزيد وقبل السفر أعطاني حقيبة مليئة بالمصوغات والمجوهرات، كان يعرف أن تذكرتي ذهاب فقط.

تماسك أبي حتى بوابة المطار الأخيرة قبل أن تنهمر دموعه منهار وهو يودعني الوداع الأخير ويهمس في أذني وهو يحتضنني " سامحيني ".

قاومت رغبة شريرة بداخلي أن أهمس له بدوري " لا.. لا أستطيع مسامحتك " واتركه لعذاباته، ولكني بكيتُ معه وقبلتُ جبينه وقلت له أنني أحِبه وأسَامحه وألا يخاف عليّ فسوف أكون بخير.

بعدها بشهرين علمت بوفاته صدفة، لم أتصل بأحد ولم أرسل لأحد عنواني الجديد.. كانت علاقتي بتلك البلد وأهلها قد انتهت.

كان السمُّ بداخلي سيقتلني أن لم أهرب وأكون شخصًا آخر في بلاد أخرى، التحقت بالجامعة لدراسة الديكور حتى تكون لي مهنة أتكسب منها ورغم المال الوفير بحوزتي سكنت في غرفة رخيصة وعملت كبائعة في أحد المتاجر، وبدأت أعيش كإنسانة جديدة على حقيقي لا كإحدى ممتلكات عمر ولا كابنة تاجر الجواهر المدللة، صفحة جديدة فتحتها بيضاء اكتسبتُ فيها معارف وأصدقاء جدد وكونت علاقات سوية مع أناس جدد بلا تحيزات أو افتراضات

مسبقة عنى ولا ينطقون لغة الضاد واعدت اكتشاف نفسي ووجدت فني يزدهر و رسوماتي أصبحت معبرة لها روح تنطق بما لم أبح به ..ثم أتيت أنت.

أردت أن أقول شيء ولكن الكلمات خانتني فلم أستطع التعبير.

-هذا كل ما لديّ لأقوله وأرجو منك ألا تقول شيء الآن واتركني وحدي من فضلك.

مُتَرْجِمُ الرَّئِيس

كل شيء في وسط العاصمة كبير جداً.

المباني شاهقة والميادين واسعة جداً والشوارع فسيحة وكل شيء ينضح بالفخامة والثراء الفاحش ولكن بلا هوية واضحة؛ المباني فخمة جداً بمداخل رُخامية واسعة أمامها جنود وموظفين متأنقون بأزياءٍ عسكريةٍ أو مدنيةٍ موحدة، المساجدُ ضخمة، الكنائسُ ضخمة، المتاحفُ ضخمة لكنها جميعًا بلا رَوح!

فالنسق المعماري خليط غير متجانس بين الغربي والشرقي وكلها تقريبًا تبدو حديثة البناء ولكنها لا تحمل السمت العملي للبناء الحديث ولا الحِس الجمالي للمباني التراثية.

عندما وصلنا إلى الفندق الفاخر محل اقامتنا لم أتمالك نفسي من الضحك من سخافة اسمه (الجوهرة الذهبية) لا أعرف من اقترح الأسم ولكن وجود شخصية على هذه الدرجة من السخف والمظهرية في منصب يجعل اقتراحاته السخيفة محل تنفيذ فوري بلا مراجعة ولا نقد يخبرك عن هذه البلاد الكثير، ولكن في الحقيقة أن الفندق كان على درجة مفاجأة من الفخامة و الجودة و العاملين به من شباب جيد المظهر والتعليم يتحدثون بالعديد من اللغات بطلاقة ويتعاملون بحرفية عالية وذوق رفيع، وإن كانت فساتين العاملات أقصر بكثير مما توقعت في بلد شرقي محافظ .

كانت مهمتي سرية.

خرجت من لندن بجواز سفر مدون به "تاجر" بخانة المهنة بدلاً من صحفي لتجنب لفت الأنظار وحصلت على تأشيرة سياحية مع فوج يزور البلاد لأسبوع.

كانت خطتي بسيطة أدخلُ البلاد مع الفوج السياحي ثم أتركهم يزورن الآثار وأجري المقابلات التي خططت لها خِلال ذلك الأسبوع واتفقت على اجرائها قبل السفر ومن ثمَّ أعاود اللحاق بالفوج في نهاية الرحلة وأغادر معهم لأعود لسناء التي انتابتها حالة فزع عندما أخبرتها بخطتي وحاولت إثنائي عنها بكل ما أوتيت من قوة قبل أن ترضخ وتتمن لي السلامة.

لقائي الأول كان مع مترجم الرئيس السابق السيد: رفيق.

الفيلا الأنيقة أثارت أعجابي بما تحتوي من أثاث راقٍ وتحفٍ ولوحاتٍ جميلة تنمُّ عن ذوقٍ رفيع، وكذلك الحديقة الصغيرة كانت مُنسقة بطريقة فنية زادت زهورها النادرة حُسناً.

كان العجوز المتقاعد شديد الحفاوة بي، يحتاج أمثاله من المتقاعدين دائمًا لمن يحدثهم ويستمع إلى حكايتهم ويشعرهم بأن لهم بعض القيمة وأنهم ليسوا زائدين على الحياة.

وبعد تقديم الشاي والحلوى كان من الصعب إيقافه عن الحكي.

-كنت أهوى الأدب الأنجليزي ولهذا اخترت دراسته وخيبت آمال والدي الذي كان يطمح في أن أدرسَ التجارة أو الهندسة أو أي شيء نافع على حد قوله، وللأسف برغم اجتهادي فلم يتم اختياري لإتمام دراستي العليا أو للذهاب في بعثة كما كنت أتمنى، وبعد نهاية دراستي لم أجد إلا وظيفة مدرس للغة الأنجليزية ثم التحقت بوظيفة مترجم بوزارة الصناعة وفي ذات الوقت اتقنتُ الفرنسية لسبب غريب.

اتسعت ابتسامته وهو يكمل:

- كنت أمر بجوار القنصلية الفرنسية ذات يوم بالصدفة فوجدت غادة جميلة تدخلها ورغم خجلي الذي جعلني أمضي سنوات الدراسة الجامعية دون أن أدخل بعلاقة عاطفية، إلا أنني وجدت في قلبي الشجاعة لأدلف للمبنى ورائها ولم أجد ما أقول سوى أن أسال عن دورات لتعليم اللغة الفرنسية...وهكذا تزاملت مع زوجتي المستقبلية وكسبت لغة وزوجة وفية ملأت عليّ حياتى... وبسبب هذه الدورة التى اكسبتني مستوى مبتدىء في اللغة الفرنسية أوفدتني الوزارة لباريس لدراسة اللغة لعام كامل بمعهد الأدارة العامة الفرنسي الذي ذهبت إليه مع الفتاة الجميلة التي أصبحت زوجتي.

وعند عودتي وجدتُ إعلانًا يطلبُ مترجمين للعمل في وزارة الأعلام براتب جيد ولإتقاني اللغتين الأنجليزية والفرنسية تم اختياري ضمن خمسة آخرين بعد مسابقة تمت بنزاهة غير معهودة لاهتمام الرئاسة بحسن الأختيار وأرسلنا لباريس مرة أخرى لدراسة تقنيات الترجمة الفورية براتب ضخم مكنني من سكني منزل في منطقة راقية وشراء سيارة والاستمتاع مع زوجتي الحبيبة بالثقافة والمباهج الفرنسية الشهيرة.

وعدت لأعمل بوزارة الأعلام لسنوات قبل أن يفاجئنى مديري ذات يوم بإعلانه.. رفيق ستعين مترجم رسميًا بمؤسسة الرئاسة وبالتدريج وعبر سنوات أصبحت مترجم الرئيس الخاص بعد أن أتقنت الألمانية والإيطالية أيضاً.

ضحك وهو يناولني كوب جديد من الشاي قائلاً:

– هذا مربط الفرس وما تريد السَّماع عنه بالطبع، وليس قصة حياة العم رفيق المتواضعة.

أول مرة دخلت مكتب الرئيس فاجئني مدى تواضعه وازدحامه.. كان مكتب مفرط في بساطته لا يوجد به جهاز تلفزيون وغارق بأكوام من الملفات.

كان الرئيس يقض بهذا المكتب ساعات طويلة جدًا من الليل والنهار حيث كان الرئيس يبدأ يومه عادة في السادسة صباحًا ويقابل ما لا يقل عن خمسين شخصًا يوميًا وفي كثير من الأيام كنت أطلب العودة للعمل مع الرئيس بمجرد دخولي المنزل حيث أظل أعمل معه حتى مطلع الفجر.

كان الرئيس رحمه الله شديد الأهتمام بكل صغيرة وكبيرة وكان يحرص على أن تقدم للشعب أفضل الخدمات وأن يعامل بالعدل والإحسان دائمًا..

كل يوم كان يرد للرئاسة مئات الرسائل والبرقيات من مواطنين عاديين والنظام المتبع أن تقسم هذه الرسائل بحسب الجهات المختصة ولكن قبل أن تذهب إليهم كان الرئيس يختار مجموعة منها عشوائيًا وينظرها بنفسه وكان أغلبها طلبات مساعدة إنسانية فكان يأمر بها فورًا وأخرى تشكو من بعض المسئولين وأغلبها شكاوي صغيرة وتافهة وبعضها كيدية فكان ينظر في الأمر بنفسه ويأمر بحل المشكلة أو تقديم المساعدة المطلوبة في حيز زمني محدود وبعدها يأمر بعرض ما تم في الموضوعِ ويقارنُ تقريرَ الجهة المختصة بتقرير المخابرات التي تنظر ما تم في الأمر فإن ظهر تقصير أوكذب كان غضبه على المقصرين والكاذبين مخيف.

وكذلك فكل فترة كان يختار مجموعة من الرسائل العشوائية التى لم ينظرها ويطلب تقرير الجهات المختصة عما تم حيالها فوراً ويأمر المخابرات بإعداد تقرير آخر ويقارن بينهم وهكذا فكان كل مسئول حكومي مهما كان منصبه يعلم أنه تحت رقابة الرئيس الشخصية وأنه إن أساء استعمال سلطاته إزاء أي مواطن مهما صَغُر شأنه فيمكن للمواطن أن يلوذ بالرئيس برسالة أو برقية تكلفه قرش وتكلفُ المسئول الفاسد مستقبله.

– يبدو الأمر شبيهاً بديوان المظالم الذي كان للخلفاء في العصور القديمة.

صمت للحظات يفكر قبل أن يرد:

– نعم، فقد كان الرئيس فخوراً بالتراث بقدر حرصه على تحديث البلاد ولحاقها بركب الحضارة.. عندما أفكر في الأمر أجد الرئيس فعلاً كان أقرب للخلفاء والسلاطين من أوجه عديدة.

كان الرئيس يتصرف كنصير للآداب، فيدلل الشعراء ويغدق عليهم العطاء كما الخلفاء والسلاطين، وكان يمنح مبالغ مالية ضخمة مكافأة لكل قصيدة وطنية تنشر، فكان الشاعر متوسط الموهبة لا يحتاج أكثر من قصيدة أو اثنين شهرياً ليتحصل على ما يفوق راتب الوزير.

– وأظن كان الأنتماء للحزب شرطاً لهذا الدعم أيضاً؟

– ليس بالضبط، كان هناك نظام لمكافأة الشعراء والأدباء بوزارة الثقافة تحت إشراف السيد / علي السامرائي، حيث تقوم لجان بعقد اجتماعات دورية وتقرر مكافآت للشعر والقصة والمسرح والرواية والمقال ومسابقات متعددة بجوائز كبيرة، ولم يكن يشترط أن تكون الأعمال الفائزة والمكرمون من ممتدحي الرئيس والثورة ولكن هؤلاء كان لهم مكافآت مجزية منفصلة، وكان الرئيس يأمر بمكافآت خاصة إن أعجبه مقال أو قصيدة أو برنامج تلفزيوني كما أصدر أوامره لوزارة الثقافة بإعداد قوائم من الفنانين مقسمة إلى فئات الأولى منها فئة الرواد سواء كبار السن منهم أو المتوفين حيث يقرر لهم معاشات استثنائية تكفل لهم ولأسرهم العيش الكريم .

ولم يكن من الضروري أن يكون المثقف أو الفنان عضواً في الحزب حتى يستفيد من تشجيعات الدولة، لكن فناني الدولة كانوا دائمًا في الواجهة يتلقون أكبر المكافآت ويشاركون في المعارض والمهرجانات بالداخل والخارج أكثر من غيرهم من المثقفين غير الحزبيين الذين تتركهم أجهزة الدولة يمارسون الأبداع بحرية بلا قيود طالما لم يتحولوا إلى مخربين ولم يرتبطوا بالمعارضة بشكل ما، فهذا دعم الدولة للثقافة على كل حال ومن الطبيعي أن يكون الدعم موجه أولاً لمن يتفقون مع سياسات الدولة و يدعمون الثورة و الحزب، ثم ينال الأخرين نصيبهم أيضًا تشجيعًا لهم بينما لا تدعم الدولة من يعاديها طبعاً .

– يمكننا إذا أن نقول إن الثقافة كانت تنمو وتتطور بدعم الدولة ولكن في إطار محكوم سلفًا مثلما كانت في عهد ستالين أو موسوليني.

غيرت من نبرتي الساخرة بسرعة خشية أن تضايقه فيفسد اللقاء، واستدركتُ قائلاً بنبرة أكثر جدية واظهار للأهتمام:

– كثيراً ما سمعنا عن كرم الرئيس الحاتمي مع ضيوفه الأجانب وهداياه الباهظة التي نالها المحظوظين ليس فقط من الساسة والدبلوماسيين بل الفنانين والأدباء والرياضيين المتميزين في المنطقة كلها فهل هذا صحيح أم في الأمر مبالغة؟

– مهما كان ما سمعت فهو لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من حقيقة كرم الرئيس، وعطائه اللامحدود.

كان الرئيسُ يستعبد قلوب الناس بالإحسان إليهم، ويكسب تضامن الدول بإكرام قادتها والمؤثرين فيها، فالكثير من القادة الأجانب كانوا يستفيدون من هبات الرئيس، خاصة قادة العالم الثالث الذين كان يسعى لكسب ودهم في مواجهة الغرب.

وبالفعل كانت هذه الدول تسارع بالتضامن معنا في كل محفل دولي وتقف في صفنا أمام أي تحدي خاصة في تصويت الهيئات الدولية الذي يعتبر معيار واضح لقوة الدولة الدبلوماسية وحسن علاقاتها بالدول الأخرى.

استطرد ضاحكاً: وإن كان الأمر مكلف للغاية فأطنان من الساعات السويسرية الذهبية والمرصعة بالجواهر منحت للدبلوماسيين وزوجاتهم وكذا السجاد الشرقي الفاخروأرسل الرئيس سيارات فخمة كهدايا إلى صحفيين وأدباء ورياضيين متميزين في العديد من دول الجوار.

–ولكن هل كان الأمر برجماتية من الرئيس ونفقات دبلوماسية في شكل منح وهدايا فقط؟

–بل ما هو أكثر من ذلك.. كان الرئيس يرى أن بلادنا عليها مسئولية النهوض بالدول الأخرى في المنطقة ومساعدتها باعتبارها الدولة الأهم والأكبرفي المنطقة وصاحبة أقدم حضارة بها، فكان قدر كبير من الأنفاق موجه لنفع الشعوب حتى تكون صورة بلادنا مشرقة في أذهانهم وتتوطد العلاقات الودية ليس بين القادة فحسب بل وبين الشعوب أيضاً فتكون لبلادنا قوة ناعمة في محيطها الأقليمي تضمن التعاون وحسن الجوار في المستقبل.

– وكذلك كان الرئيس معروفاً ببذخه وإنفاقه الشخصي كما يبدو من القصور الرئاسية المعروفة بفخامتها على مستوى العالم.

– كان الرئيس على علم بأنه يتهم باستمرار بالبذخ والإسراف بسبب القصور الرئاسية والمشاريع المعمارية الضخمة التي قام بها، ولكن هذا السلوك له العديد من المبررات، على رأسها قناعة الرئيس بعظمة بلادنا ورغبته في إبهار الضيوف الأجانب بإظهار ثرائها وقدرتها الكبيرة فخضعت كل المباني الحكومية والرسمية وكذلك المتاحف والمساجد والكنائس الكبرى وغيرها إلى عمليات تجديد شاملة وصلت حد الهدم التام وإعادة البناء بالإضافة إلى ما استحدث من منشئات على أعلى مستوى من الجودة والفخامة، ولم يتوقف قطار التعمير هنا بل عم التغيير كافة أنحاء البلاد و بنيت شبكة طرق على أعلى مستوى وكذلك شبكات صرف صحي وكهرباء ومدت خطوط تليفونات وتحسنت البنية التحتية للبلاد كلها باضطراد طوال سنوات عهد الرئيس ، وقد وفرت هذه المشاريع القومية الضخمة عشرات الألاف من فرص العمل فأنعشت الأقتصاد في أوقات الركود.

كما يجب أن تلاحظ أننا محاطون بدول يحكمها الملوك وأمراء فلم يكن من المستساغ أن تكون منشئات بلادنا أقل منهم وهي الدولة الأكبر في المنطقة.

كنت أعلم أن دافع الرئيس الأكبرفى بناء قصورة الأسطورية هو منافسة أمراء البترول في المنطقة الذين يحتقرهم، ولم يكن كبريائه ليسمح بأن تكون قصورة أقل فخامة وضخامة من قصورهم، ولكن السيد رفيق لم يكن ليعترف بذلك، فأكملت أسئلتي.

– وماذا عن طبيعة الرئيس الشخصية؟ كيف كان تعامله معكم وقد عملت معه لسنوات طويلة؟

– الرجل الذي عاشرته لسنوات طويلة كان شديد التهذيب مثقف ومجامل ومراعي للآخرين، خاصة مع السيدات فهو لم يعقد ساقيه أبدًا في وجود امرأة ويفتح لهن الأبواب ويحرص على ألا يعلو صوته أبدًا في وجود سيدة، كان طيلة الوقت رجل لطيف مهذب.

كنت وأنا أعمل معه أجد منه ذلك الجانب البسيط، فكثيراً ما كان يقول لي، مقاطعاً الحديث مع محدثه:

رفيق اشرب شايك قبل أن يبرد، أو تناول طعامك أن كنت معه على مأدبة مع حرصه أن أتناولَ نفس أصناف الطعام التي تقدم له ولضيوفه من الرؤساء والزعماء.

وذات صيف كان يعاني من الأم الظهر فكان يستقبل زواره في قاعات غير مكيفة ولكني كثير التعرق في الأجواء الحارة، فكنت إذا حضرت اجتماع معه لاحظ تعرقي وأمر برفع مستوى التكييف.

ذكرتني كلماتة بموقف حكاه أحد الدبلوماسيين العرب، أنه في مطلع حياته الدبلوماسية حضر اجتماع موسع مع الرئيس كان أصغر حاضريه سناً ومنصباً وأثناء حديثه وجد الرئيس وقف فجأة وارتبك الجميع وقفزوا من مقاعدهم ليجدوه يتجه للشباك ويعدل الستائر حيث لاحظ أن أشعة الشمس تأتي على وجهه فتضايقه!

– هكذا أفضل أستاذ؟ سأل الرئيس قبل أن يعود لمقعده بهدوء ويواصل الأجتماع ببساطة.

سخرت من هذه القصة طويلاً، ولكن شهادة السيد رفيق تعضدها وتمنحها مصداقية.

حاولت دفع السيد رفيق للاستطراد وتوضيح المزيد، فقلت:

– ولكن شتان بين هذه الصورة التي ترسمها وصورة الرجل صاحب القبضة الحديدية الذي سيطر على البلاد عقوداً طويلة وسحق مناوئيه بقسوة؟

– أعلم أن الصحافة الدولية كانت تسميه طاغية وتشبهه بالغول، وبالفعل كان شديد المراس لا يهاب أحداً بالداخل أو الخارج وفرض احترامه وهيبته على الجميع، ولكنه لم يكن قاسي القلب معدوم الضمير بل كانت أحكام السياسة هي التي تفرض عليه أحياناً السلوك العنيف حتى يحفظ أمن البلاد ويتصدى للمخربين في ظل أوضاع داخلية وإقليمية غاية في الصعوبة..

صمت للحظة وتأملني قبل أن يردف:

– حتى بعض أصدقائي لم يكونوا يصدقون أن هذا الرجل المرعب في علاقاته الشخصية شخص لطيف ودود وكانوا يظنون أنني أكذب بداعي الخوف ولكني أشهد بالحق والحقيقة أنني لا أمتلك إلا الأمتنان للرئيس خلال سنوات عهده، فربما لم تلاحظ ولكني أرثوذكسي وعلى الرغم من انتمائي لأقل الطوائف في هذه البلد عدداً و أقلها انخراطًا في

غمار السياسة إلا أن ذلك لم يمنع تقدمي في مسيرتي المهنية ولم تتعرض طائفتي لأي اضطهاد في عهد الرئيس خلافًا لعصور سابقة اضطر فيها أغلب أبناء طائفتي للهجرة بحثًا عن بلد لا يضطهدهم حكامها لا لشيء إلا لأنهم ضعفاء لا يخشى جانبهم، بل تصدى الرئيس بقوة للمتطرفين و لم يسمح للطائفية أن تتحكم في سياسته أبدًا ..

ولكن في حال مواجهته لقوى تنازعه سلطانه فكان يفعل ما هو ضروري للحفاظ على الدولة والنظام وإن كان قاسيًا معهم فهم أن تمكنوا سيكونون أكثر قسوة وعنفاً ثم أنهم المخطئون ومن يعرض نفسه للخطرويتنازع صاحب السلطة الشرعية في سلطانه.

عقبت بعبارة من الأنجيل مبتسماً:

-لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة من الله.

رد على ابتسامتي بذكرحديث نبوي قائلاً:

-عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمَّرعليكم عبدٌ حبشي.. النزاع على السلطة ممقوت في المسيحية والإسلام على حدٍ سواء، من يريد الخير للناس لا يعدم الوسائل ولا يلزمه أن يجلس على عرش لتحقيقه بل عليه أن يبذل جهده بحسب قدرته، يخلص النصيحة للحكام بما يراه الصواب، ولكن المنازعة على الحكم حسداً أو كراهية لمن يحوزها شخصاً أو عائلة باب فتن عمياء.

- وهل كان الرئيس يستمع للنصائح من المخلصين؟ قد أشتهر عنه أنه رجل صلب الرأي لا تؤثر فيه قناعات الأخرين؟

-على حسب المسألة محل النقاش، كان الرئيس يقسم المسائل إلى مسائل موضوعية يستمع فيها لنصائح الخبراء والخلصاء بانفتاح تام وقبول لكافة الأراء وأخرى مبدئية لا يسمح لأحد بمناقشة قراراته فيها.

- تقصد أنه يجعل المسائل السياسية مسائل سيادية يقضي فيها وحده بينما المسائل الغير سياسية يتركها لآراء الخبراء كل بحسب مجال خبرته؟

– وحتى المسائل السياسية لم يكن ينفرد بالقرار فيها في أغلب الأحيان، كأن يحرص على أخذ رأي مجموعة صغيرة من كبار المسئولين والمستشارين ولا يقطع أمر دون مشورتهم وإن كانوا في أغلب الأحيان يكتفون بمديح رأي الرئيس وحكمته إلا أنهم وخاصة السيد عزيز وزير الخارجية كانوا يدلون بآرائهم في الشئون الخارجية وكثير ما كان يأخذ بها الرئيس، ولكن في المقابل كانت ثورته شديدة أن اقترح أحد ما يخالف مبادئه.

صمت للحظة مفكراً قبل أن يستطرد:

– أذكرُ أن أحد السفراء الأجانب قد قابل الرئيس وأظنه أساء تقدير حسن ضيافته وحفاوته به، فاقترح عليه أن يعترف بدولة إسرائيل ويقيم معها علاقات دبلوماسية كمؤشر للإرادة الدالة على الرغبة في تطبيع العلاقات مع الغرب.

وبالطبع أثار ذلك حفيظة الرئيس، الذي راح يوبخ محدثه بعنف حتى خشيت أن يضربه، وانتهى اللقاء الودي بطرد السفير من القصر الرئاسي وبعدها من البلاد كلها بعد إعلان بلاده بأنه شخص غيرمرغوب فيه.. سبب ذلك أزمة دبلوماسية بالطبع ولكن الرئيس كان يرى في اقتراح ذلك السفير إهانة بالغة له واتهام بأنه رجل بلا مبادئ وهذا ما لم يكن يستطيع مسامحته أو التغاضي عنه لأي اعتبار.

كما أذكر أن أحد المسئولين بالحزب قد عرض على الرئيس خطة لهدم العديد من المساجد الأثرية للاستفادة من الأراضي التي شيدت عليها والتي أصبحت ذات قيمة اقتصادية عالية لمواقعها المتميزة والتصرف في محتوياتها ذات القيمة الأثرية والفنية بالبيع للأثرياء العرب والمسلمين، ظناً منه أن إرادة الرئيس في تحديث البلاد قد تنصرف إلى مثل هذا.

– اعترض الرئيس بالطبع على هذا.

– بل انهال على المسئول بالصفعات أمام الجميع! وعلا صوته وهو يوبخه "كيف لك أن تفكر في تدمير تراثنا الديني؟ أنت لست جديراً بمنصبك"

– لكن الرئيس كان عَلمانياً؟ وهذا موقف شخص متدين فهل كان الرئيس متديناً؟

– أنت تعرف بالتأكيد أن القادة والزعماء تختلف رؤيتهم وتعريفهم للدين عن عامة الناس.

تردد قليلا قبل أن يردف:

-أظن أنه يمكننا القول إن الرئيس لم يكن متديناً، ليس بالشكل الذي يتدين به عامة الناس على الأقل، لكنه كان يحترم الدين ورجاله سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ويرى الدين جزء من التكوين الحضاري للبلاد ومن أهم عناصر بنائها الثقافي.

قاطعته قائلاً:

-هذا أن لم يتدخلوا في السياسة طبعاً.

- بالتأكيد الفصل بين الدين والدولة كان أمر مبدئى بالنسبة للرئيس، الدين في نظرة كان خيار الأنسان للخلاص الشخصي ومهمة رجال الدين الأجتماعية أن يحثوا الناس على مكارم الأخلاق والالتزام بالقانون والنظام وتشجيعهم على العمل لصالح البلاد، وليس البحث عن لعب أدوار سياسية.

- ولكن كيف يتفق مبدأ الفصل بين الدين والدولة مع الحرص على سيطرة الدولة على الدين من خلال مؤسساتها الدينية الرسمية التي تنظم كل ما يتعلق بالخطاب الديني؟

-هذا أيضًا كان بداعي الضرورة، أتعلم ذلك المثل عن الشاة الضالة؟ هي لك أو لأخيك أو للذئب، أن لم تكن الدولة أو من يتفقون مع سياستها هم المسيطرون على المؤسسات الدينية فسيسيطر عليها المتطرفون ويتخذون المنابر قلاع يحاربون بها الدولة.

لم أخبره أن المثل الذي ذكر في حقيقته حديث نبوي وأدرت دفة الحوار لجهة أخرى قائلاً:

-ماذا عن قرار إغلاق العاصمة وألا يسمح ببناء أي وحدات سكنية أو تجارية جديدة بها، إلا من خلال الدولة وحتى من يبيعون عقارات يمتلكونها بها كان يجب عليهم بيعها للدولة حصراً.

-العاصمة كانت مكتظة بالسكان بما يكفي ولم يكن الرئيس راغبًا في استمرار مسيرة العشوائية بها فكان قرار حظر البناء إلا من خلال هيئة تنمية العاصمة حفاظاً على الشكل الحضاري للعاصمة فهي واجهة البلاد وأهم مدنها ولم

يعترض أحد على تخطيط الرئيس ومع مرور الوقت أتت خطة الرئيس ثمارها وتحولت العاصمة من مدينة عشوائية تخلوا من أدنى مظاهر النظام إلى مدينة عصرية جميلة هادئة.

– لقد قضيت سنوات طويلة في القصر الجمهوري وبالتأكيد تعرفت عن قرب بشخصيات هامة ومؤثرة مثل سكرتير الرئيس اللواء حسن حمود الذي رغم عدم ظهوره الأعلامي أبدًا هناك الكثير من الأقاويل حول طبيعة شخصيته وسلطته الواسعة في القصر وعلاقته بالرئيس.

– نعم اللواء حسن حمود رحمه الله أحد رجال دائرة الرئيس الضيقة جداً وأظنه الوحيد بها الذي لا يمت له بصلة دم أو مصاهرة وأن تشاركا الأنتماء لذات العشيرة، وكان رئيسي حيث كان فريق المترجمين تابعًا له كما كان مكتب الصحافة والتشريفات وغيرها، وبالتأكيد كان له سلطة كبيرة فقد كانت ثقة الرئيس به مطلقة حتى أننا كنا لا نعرف حين يتكلم هل يتحدث باسمه أو باسم الرئيس، وكذلك كان علاقاته جيدة بأفراد أسرة الرئيس ورجال دائرته الضيقة.

– البعض يقولون إنه لم يكن عسكرياً ولم ينضم للجيش أصلاً وأن رتبة اللواء منحت له من الرئيس تقديراً وكذلك درجة الدكتوراة في العلوم السياسية لكنه لا يحمل أي شهادات فهل هذا صحيح؟

–لا أستطيع الجزم بما تحصل عليه من شهادات.

أضاف ضاحكاً: أنت لا تطلب من رئيسك أن يظهر لك شهاداته ولكن العكس صحيح ولكن ما أعرفه أنه خريج الأكاديمية العسكرية، وقد بدأت علاقته المميزة بالرئيس عندما قابله في إحدى زيارته لبلدته بالريف وكان وقتها نائب للرئيس البكر، فطلب منه اللواء حسن أن يلتحق بخدمته كحارس شخصي، فوجهه الرئيس للالتحاق بالاكاديمية العسكرية وقدم له توصية لقبوله بها وعندما انتهى من دراسته التحق بطاقم مساعدي الرئيس كحارس شخصي في البداية ثم سكرتير خاص وظل هكذا حتى وفاته قبل الرئيس بشهور قليلة.

–إذًا فعلاقتهما استمرت أكثر من ثلاثين عاماً.. هذا يفسر الثقة الكبيرة التي أوّلها الرئيس له.

–وكانت الثقة في محلها، يكفي أن تعرف أنه الوحيد الذي كان يحمل مسدساً معه طوال الوقت ويقف دائمًا خلف الرئيس وكأنه لا يزال حارسه الشخصي حتى أيام مرضه الأخيرة، وإن لم أسمعه يقل ذلك إلا أن تصرفاته كانت تشي بأنه على استعداد للتضحية بحياته في سبيل الرئيس في أي وقت.

– وماذا عن أبناء الرئيس؟ هل كان لك تعامل مباشر معهم؟

– بالطبع، كانت لي تعاملات كثيرة مع دكتور باسل وهو مثال حي لمقولة الولد سر أبيه، فهو أن كان شكلياً أقرب لوالدته إلا أن عقليته وطباعه تبدو وكأنها مشتقة من والده، وهو مجتهد جداً محب للاطلاع ويعشق النظام وتغضبه بشدة أقل هفوة.. أظنه سيكمل مسيرة أبيه بنجاح وأتمنى ألا يقابل تلك الصعوبات الجمة التي واجهها والده.

– والابن الأصغرعمر؟

بدا عليه الأرتباك لثواني قبل أن يجيب:

– ليس هناك الكثير لديّ لأقوله عن الفقيد عمر رحمه الله.

– ولكن الكثير قد قيل عنه، نزواته التي تجاوزت كل الحدود وولعه المرضي بالاستحواذ على نساء الأخرين والأعمال التجارية المشبوهة التي شارك فيها العديد من المتنفذين مثل أبناء اللواء حسن حمود الذين يمتلك كل واحد منهم شركة ضخمة بحجم أعمال لا يتناسب مع مدخرات والدهم أو مجهودهم الشخصي وهم في ريعان الشباب، وغيرهم الكثيرين ممن ارتبطوا بالنظام بشكل أو بآخر فكونوا ثروات هائلة.

قاطعني وقد اختفت ابتسامته الهادئة وبدت على وجهه أمارات الفزع "أرجوك سيد آدم، هذا يكفي لقد قلت ما عندي وليس لدي المزيد لأضيفه"

أظنه كان يراجع في ذهنه كل كلمة قالها في هذا اللقاء وهو يودعني بلا حرارة، كان يبدو عليه الندم ويحس أن لقائي به كان خطأً جسيمًا.

فِي سِجْنِ الحَائرِ

قطعة من الكرتون رسم عليها أربعة وستون مربعاً ظلل نصفها باللون الأسود وترك النصف الأخر ومعها اثنين وثلاثون قطعة صغيرة من الكرتون كتب عليها حروف للدلالة عليها (ح) حصان، (ف) فيل، (م) ملك.

كان هذا الشطرنج الذي صنعه على السامرائي ولم يقتنص أحد من رفاق السجن انتصاراً واحداً منه على رقعته.

في ساحة السجن التي امتلئت بالمعتقلين من كافة ألوان الطيف السياسي كان علي السامرائي وعلي مهاب الدين يقتلون الوقت باللعب والنقاش مع رفاقهم من منتسبي حزب الوحدة.

أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، تخبط الضباط الذين أسقطوا الملكية دون أن يحددوا مساراً واضحاً لمستقبل البلاد بعدها فانقسموا على أنفسهم في الظاهر لفريقين، أحدهما يدعم المسار الديموقراطي والآخر يرى الأنفراد بالسلطة التي خاطروا بحياتهم للاستيلاء عليها، بينما كان الصراع الحقيقي شخصي بين مجموعة يرى كل فرد منها نفسه الأحق بقيادة البلاد دون غيره ويريد لنفسه نصيب الأسد من الغنائم، فأطيح بعبد الكريم الذي ظهر كقائد للانقلاب في البداية قبل أن يتبين للجميع أنه أضعف قطيع الذئاب، ولم يحتاج سلفة الفريق حافظ إلا انفجار عدة سيارات مفخخة و بضع صدامات ومشاجرات عنيفة بين منتسبي الأحزاب المختلفة ليبرر إعلان حالة الطوارئ و الأحكام العرفية ويلقي بكافة النشطاء الحزبيين في السجون .

كان مهاب الدين يخسر الدور ولكنه لم يكن مهتماً باللعب، وكانت عيناه معلقتان بغابة اللحى بالجانب الأخر من الساحة حيث معتقلي حزب الدعوة الأسلامي الذين يبادلونه النظر شزراً، خاطب السامرائي هامساً:

– هل تعتقد أن هؤلاء الحمقى سيكفون عن التحرش بنا؟

حرك السامرائي قطعة الشاة وهو يرد:

– تحدثت مع الشيخ عبد الحكيم في الأمر هذا الصباح، أخبرته أنه ليس من صالح أحد أن نتحول لمصدر تسلية لحراس السجن الذين لا يسعدهم شيء أكثر من رؤيتنا نلكم وجوه بعضنا كل يوم ووعدني أن يأمر اتباعه بعدم التعرض لأحد من رجالنا، على أن نفعل المثل وهذه مهمتك.

بضيق واضح رد مهاب الدين:

– حسناً، سأحرص على أن يتجنبهم رجالنا ولا يحتكون بهم وإن كنت أتمنى أن أعالج هؤلاء الحمقى بكسر رؤوسهم وإخراج أكوام الأوساخ منها.

نظر السامرائي إلى مهاب الدين مبتسماً وهو يقول:

– أتعلم أنني كنت أفكر في ترتيب لقاءات لمحاولة مد جسور التقارب بيننا وبينهم؟ ولكن يبدو أن هذه الفكرة أجهضت قبل أن تقال.

عقدَ مُهاب الدين حاجبيه في غضب وهو يقول:

– أي تقارب وأي جسور تمد مع هؤلاء الحمقى؟ الرجعية أهم أعدائنا وهؤلاء تجسيد حي لها، دورنا أن نحاربهم وهم على غبائهم اللامحدود يعرفون ذلك.

رد السامرائي بهدوء:

– لكن يا صديقي الدين في بلادنا عامل مهم وليس بمقدورنا الأستغناء عنه كأداة للضبط الأجتماعي على الأقل في هذه المرحلة، وليس من صالحنا أن نظهر معادين للدين في نظر العامة كما سيحرص هؤلاء على إظهارنا أن لم نصل إلى تفاهم معهم ونحن خارج السلطة.

هز مُهاب الدين رأسه مظهراً عدم اقتناعه قائلاً:

– حتى وإن كان يجب علينا استعمال الدين كأداة تنظيمية في المجتمع فيجب أن يكون ذلك من خلال رجال دين يدينون بالولاء للحزب وليس من خلال هؤلاء.

رد السامرائي:

– ولكن وجود هؤلاء كقوة تنظيمية تمنحنا العديد من الفوائد، فمن ناحية يتصدون لأعدائنا المشتركون فيخففون الضغط علينا ومن ناحية أخري يظهرون كبديل رجعي يدفع الرافضين للحكم الديني إلى الأصطفاف معنا.

رد مهاب الدين مستنكراً:

– أتريد منا أن نقلد الأستعمار في اصطناع قوي وضرب بعضها ببعض؟

– أتنكر أن هذه السياسة كانت ناجحة في حفظ دماء المستعمرين ومصالحهم وإطالة أمد بقائهم في هذه البلاد وغيرها؟

إن كانت الطريقة ناجحة فلا ضير في أن نستعملها بوعي وإدراك في إطار محدد سلفاً ولفترة انتقالية.. الطريق طويل والوصول إلى السلطة هو مجرد الخطوة الأولى به، بينما المعركة الحقيقة في تغيير ثقافة هذا البلد وتحويل قاطنيه من جماعات طائفية وعرقية متناحرة إلى شعب وفى هذا المعركة نحتاج للكثير من الأسلحة.

لم يعقب مهاب الدين وعاد ينظر لرقعة الشطرنج بوجه جامد.

بعد هذه المحادثة بأيام تلقى مهاب الدين زيارة في السجن ومع الأطعمة والسجائر بلغته رسالة شفوية من رجل الحزب السري في مجلس قيادة الثورة العميد البكر، أنه استطاع التوصل إلى تفاهم مع الرئيس حافظ وتقرر بمقتضاه أن يفرج عن عدد من رجال الحزب تدريجيًا وطلب منه أن يقترح أسماء لضمها للقائمة التي يفرج عنها أولاً معه.

عدد مُهاب الدين أسماء الكثيرين ولكن اسم السامرائي لم يكن من ضمنهم.

الجَاسُوس ١١٢

بشقة صغيرة بمجمع سكني متوسط الحال في إحدى المدن الساحلية كان يعيش دكتور منصف منذ سنواتٍ طويلة، منعزلاً عن كافة الأحداث مكتفياً بمشاهدة التلفاز وقراءة الكتب.

كيف انتهى أستاذ الأقتصاد اللامع الذي تنبأ له أساتذته في كل مراحل دراسته بمستقبل مبهر إلى أن يكون سجين هذه الشقة لعقود؟

لأنه قابل يوماً علي مهاب الدين.

كان لايزال مندهشاَ لتوصلي إليه وطلبي لقاء معه وقد ظل كل هذه الفترة في الظلال.

أخبرته بلا مراوغة أن اختياري له جاء كنموذج للأكاديمين الذين تم اقصائهم في بداية صعود الرئيس في سبيله للتحكم بالحياة الأكاديمية ككافة نواحي الحياة في البلاد.

كان لديه استعداد للحديث بلا اشتراطات ولا خطوط حمراء.. تعدى السن الذي يتوخى الأنسان فيه الحذر ويخشى العواقب على حد قوله، وبدأ في رواية قصته.

كنت وقتها أستاذ للاقتصاد السياسي في الجامعة وكان مُهاب الدين نائب الرئيس وكانت مناظرة مع أحد زملائي دكتور محمد للمقارنة بين الأقتصاد الحر والاقتصاد الموجه وتأثير كلاهما في تحقيق التنمية وكان حظي أن توليت دور مناظر الأقتصاد الحر، وكان ظنى أن حضور نائب الرئيس لفاعلية مثل هذه غايتها تحفيز عقول الطلاب أمر برتوكولي محض ولا ضير في الحديث عن أنماط الأقتصاد السائدة في العالم داخل الجامعة.. ولكنى كنت مخطئاً.

كانت القاعة ممتلئة عن بكرة ابيها حيث حضر كافة أعضاء هيئة التدريس وطلاب قسم الأقتصاد في الجامعة، والكثير من الطلاب الذين اكتشفت لاحقًا أنهم من منتسبي الحزب ومؤيديه جاءوا لتحية نائب الرئيس القيادي الكبير في الحزب.

بدأت المناظرة بافتتاحية حماسية قلت فيها:

– إن الفقر ليس مجرد مشكلة مادية أنه أمر واسع فهو تعبير عن الضَّعف والحِرمان من الفُرص الأساسية وحرية الأختيار والمداخل القليلة هي غالبًا تنتج عن أعراض غياب هذه الفرص وتهميش الناس أو تعريضهم للاكراه.

إن التنمية البشرية تعني الأستمتاع بحياة آمنة وصحية ومستوى معيشة جيد والحرية في تشكيل حياة الأنسان الخاصة.. وكما نرى سادتي فإن الدول التي لا يشعر فيها مواطنيها بدرجة عالية من الأمن ينزعون إلى تكديس الثروات بالطرق السليمة والمنحرفة وتكنيزها بدلاً من استثمارها خشية الخسارة ولعدم وجود شبكة أمان اجتماعية تضمن عدم وقوعهم في قاع الفقر أن قاموا باستثمار خاطئ.

ويلاحظ أنه لم تقع مجاعة أبدًا في أي بلد ديموقراطي حتى الديموقراطيات الفقيرة مثل الهند وبوتسوانا تجنبت المجاعة بينما عانت منها الدول الشيوعية الكبرى والصغرى مثل الصين وكمبوديا والاتحاد السوفيتي وكوريا الشمالية.. وتفسير ذلك بسيط حيث أن الزعماء في الدول الديموقراطية يتم خلعهم إن أخفقوا في مواجهة مشكلة ملحة ويفسحون الطريق أمام غيرهم بينما في الدول الشُّمولية فلا خوف على أهل السلطة من الجوع ولا من ردة فعل الشعوب عليها.

كذلك فحرية الصحافة والرأي والسوق يسهمان بدرجة كبيرة في إظهار أسباب المشكلات والتوصل لحلول لها في بدايتها قبل أن تستفحل.

وإن كانت الدول الشمولية تنجح في تحقيق أهداف تنموية كبرى من خلال استغلالها لقدراتها الكبرى فإن ذلك يتم بأثمان باهظة، ففي خلال تحقيق برنامج القفزة الكبرى إلى الأمام في الصين ما بين أعوام ١٩٥٨ و١٩٦١ مات ٣٠ مليون إنسان من الجوع، ولكن عندما بدأت الدولة في منح المزارعين قسط من الحرية ونقلت الأراضي لأيدى خاصة تدريجيًا ارتفعت الأنتاجية حتى حققت الصين فائض من الغذاء وتضاعف دخل ٨٠٠ مليون مزارع صيني في خلال ست سنوات فقط في أكبر عملية خفض للفقر في التاريخ.

وبالطبع فإنه يتضح للجميع أن التجارة الحرة والسوق المفتوح يسمح للسلام أن يزدهر فكما قال فريديك باستيا لو لم تعبر البضائع الحدود سيعبرها الجنود، وكثير ما يذكر مثال أن السلام بين السويد والدنمارك تم على غير رغبة حكامهم في القرن السادس عشر نتيجة للعلاقات التجارية الوثيقة بين المزارعين والتجار في كلا البلدين والذين رفضوا محاربة

جيرانهم، فتحقق السلام والازدهار للدولتين بفضل هذه العلاقات وحافظ الملوك في كلا البلدين على عروشهم مستقرة ونجوا من تهديد الحرب لهم.

رد دكتور محمد مسرعاً:

– لكن في واقعنا العالمي المعاش نرى الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد بجنون فإجمالي الناتج المحلي للفرد في أغنى ٢٠ بلد أكبر من مثيله في أفقر ٢٠ دولة بحوالي ٣٠ مرة، وكذلك الأمر في الأفراد فأغنى خمسة بالمئة يستحوذون على أكثر من نصف الثروة في الدول الغنية.

ثم أردف ساخراً:

إلا يبدو لك أن توزيع الثروة هذا مماثل لدرجة كبيرة لتوزيعها في العصور الوسطى؟

أجبت بهدوء:

–الحقيقة أن هذه مقارنة ظالمة لحد كبير.. فلاحين أوروبا في العصور الوسطى كانوا أقنان، مجرد عبيد للأرض لا يتلقون تعليم نظامي ولا رعاية صحية وليس لهم حقوق ويمكن لمالك الأرض قتلهم أو تعذيبهم كما يشاء دون معقب ولا حتى تأنيب ضمير وتحصدهم الأوبئة والأمراض حصدًا فهل نقول إن فقراء الريف الأوروبي الآن مثلهم؟

عندما نقارن فعلينا أن نعترف بأن الفقر نسبي وليس مطلق فشخص يعيش في دولة فقيرة ويتقاضى أجر يفوق نصف متوسط الأجور في هذه البلد يكون فقيرًا مدقعاً مقارنة بنظيره الذي يعيش في دولة غنية.

ونحن عندما نتكلم عن السوق الحر فنحن نتكلم عن أقرب الطرق لتحقيق أعلى فرص الازدهار للناس وأعلى معدلات للنمو وأسرعها للدولة، وكذلك رفع مستوى معيشة الناس وتحسين حياتهم وإطالتها حتى من خلال ضمان التغذية الجيدة والرعاية الصحية، وهذا ما تحققه بناء على الاحصائيات بالطبع اللبرلة الاقتصادية وفتح الأبواب أمام الاستثمار الخاص والمنافسة الشريفة في السوق المفتوح.

رد دكتور محمد:

– ولكن ما يحدث في الواقع هو سوء توزيع الثروة حيث يزداد الأغنياء غنى وتزيد ثروة الفقراء بقدر ضئيل بطبيعة الحال لأن السوق المفتوح على مصراعيه يكون ميزان القوة فيه لصالح الأغنياء بطبيعة الأشياء فيتمكنون من تعظيم ثرواتهم باضطراد والفائدة التى تعود على الفقراء إنما لرفع قدراتهم الاستهلاكية بالقدر اللازم لضمان مبيعات أكثر للمستثمرين الأغنياء.

– أنا لا أقول إن السوق المفتوح هو الحل السحري للاقتصاد المزدهر ولكن لم يحدث معدل نمو ثابت إلا في سوق مفتوح.. وإن كانت اقتصاديات بعض الدول تحتاج لتدخل نسبي للحكومة في تنظيم السوق خاصة في الأسواق الناشئة الضعيفة إلا أن هذه المرحلة يمكن تجاوزها سريعًا بقوانين صارمة ضد الاحتكارات والاستغلال وقوانين عادلة للعمل.

– وهل أفلحت تلك الاجراءات في الدول التي اتخذت نهج اللبرلة الاقتصادية في الحد من تضخم الفوارق الطبقية واللامساواة الهائلة بها؟ هل تظن أن الضرائب التصاعدية تكفي لسد الهوة بين الأغنياء والفقراء؟

– الحقيقة أن هذه الضرائب ليس بالأمر المتفق عليه.. البعض يمثلها بفرض غرامة على الأكثر عملاً وادخارًا وكانك تعاقب الناجحين على نجاحهم!

وبالفعل اللبرلة الاقتصادية تضخم من الفوارق الطبقية وتزيد من اللامساواة لكن ماذا يعنيك من درجة غنى الآخرين إن كنت تحصل على كفايتك وتعيش حياة هانئة؟ ما هو الاعتراض الأخلاقى على كون شخص ما يمتلك ما يساوى نصف ثروة شعب بلد أن كان سائر الشعب يحيا في رخاء؟ هل المال شيء سيء في ذاته ليكون حصول الإنسان على ثروة أمرًا بهذا السوء ينبغي مكافحته؟

اعترض دكتور محمد قائلاً:

– عفوًا ولكن هذا لا يمكن قبوله في كافة الظروف فدولة زراعية أن كان بها إقطاع فسيتحول الشعب بها إلى أقنان ولن تستطيع اللبرلة أن تغير من وضعهم مطلقًا بل سيظلون مرغمين على العيش بالكفاف بينما يكدس ملاك الأراضي الثروات وينفقونها بجنون واستهتار ولا يقاسمهم فيها أحد، وعندما تفتح الدولة أبوابها على مصراعيها أمام التجارة الخارجية فما يحدث هو بيع للمواد الخام للبلدان الغنية ومن ثم تفقد هذه الدول النامية قدرتها على التصنيع و تتحول

إلى مجرد مورد للدول الغنية التى تستنزفها وإن لم تقبض الحكومة يدها على هذه الموارد فستهدر بأبخس الأثمان وتضيع فرص التنمية و تترك الأجيال القادمة صفر اليدين وإن لم تطبق الدولة الاجراءات الجمركية الحِمائية فلا يوجد ما يمنع الدول الأقوى من إغراق الأسواق الناشئة بمنتجات أفضل وأرخص فتقضي على صناعاتها الناشئة وتحول شعوبها لمستهلكين دون أن تترك لهم مجالا للتنمية والتقدم.

وماذا ستفيدنا الحرية الاقتصادية وجيبي خاو؟ لا أمتلك وسائل تحقيق الثروة أصلاً فضلاً عن امتلاك ما يمكنني من المنافسة الشريفة دون أن يأكلني السمك الكبير.

أسرعتُ بالرد:

-نعم هذا صحيح نسبيًا، ولكن السوق الحر والمنافسة المفتوحة تكفل ازدهار الابتكار وتدفع الأفراد إلى بذل قصارى جهدهم للحصول على الحافز الفردي والنجاح المهني، والطبيعي في دولة تريد النجاح وتحقيق التنمية المستدامة أن لا يقتصر اقتصادها على الزراعة بل قطاعات متعددة كالصناعة والتجارة والسياحة والخدمات وهنا يمكن للفرد المجتهد المبتكر أن ينمو ويثري وينمو القطاع والاقتصاد ككل معه..وليس من الطبيعى أبدًا أن نحدد طموحنا على أساس واقع لا نرتضيه بل يجب على الدول الزراعية أن تدعم السوق الحر حتى تدعم القطاعات الأخري وتساعدها على النمو من خلال الحافز الفردي للأفراد، كما أن الإغراق في الاجراءات الحمائية وإن كانت ضرورية نسبيًا في بعض الأحيان يؤدى لعكس المطلوب حيث تضعف الصناعة لعدم المنافسة ويضعف السوق ككل.

ما ميز الاقتصاديات الناشئة للدول النامية التى حققت نجاح ملحوظ أنها ألزمت نفسها بدعم السوق الحر وحماية حقوق الملكية وقامت بالتركيز على التعليم الابتدائي بينما تركت التعليم العالي للسوق الممول من القطاع الخاص فكانت أعداد وتخصصات الخريجين متسقة مع حاجات السوق وطاقته وتم قولبة التعليم العالي وفق احتياجات الاقتصاد.

ثم جرفني الحماس وشهوة الفوز في الجدل فأسقطني في فخ بكلمات استغرب إلى الآن كيف خرجت من فمي، حيث قلت:

– ولكن في الدول المنغلقة يتزايد الفساد بدرجة مهولة في الخفاء ويستولى الفاسدون من الحكومة على أموال الشعب والتنمية ببساطة سواء بالاختلاس المباشر أو بالإهدار في مشاريع قليلة أو منعدمة الجدوى الاقتصادية وتتكلف أضعاف ما تستحق.

ولدينا نماذج واضحة لدول منغلقة، وهبها الله ثروات طبيعية ضخمة ولكن الأنظمة الاستبدادية التي حكمتها حولت تلك الموارد من هبة إلى لعنة، فسهولة الحصول على المال باستخراج المعادن أو النفط أو الغاز من باطن الأرض وبيعه أسقطت الحاجة لوضع أطر قانونية وتنظيمات اجتماعية وخطط تنموية لتعظيم ثروة الدولة، ولكن عندما تضرب المعاول في الأرض فتخرج الذهب فهي أولاً تجتذب الجوارح من الشركات العملاقة التى تدفع ثروات طائلة على سبيل الرشا والعمولات للحصول على الامتيازات للحفر و التنقيب، فتجد الطبقة الحاكمة الأموال السائلة الوفيرة بين يديها مما يدفعها للتشبث بالسلطة أكثروعدم مشاركتها لتستأثر بحق توزيع تلك الثروات، فلا تتطور الدول اقتصاديًا و بالتالي لا تتطور سياسيًا حيث تسقط هذه المعادلة مبادئ حق مسائلة الحاكم و الشفافية حيث أن الدولة تحصل على الأموال ليس من الضرائب التي تفرض على الشعب وإنما من مواردها غير المتجددة فتضعف الحاجة إلى التمثيل السياسي و تدافع الطبقة المستفيدة من توزيع الثروات الغير عادل عن الحاكم المستبد و ترفض الديموقراطية التى ستؤدى بطبيعة الحال إلى حرمانها من امتياز استئثارها بتلك الثروات التى ستوزع توزيع عادلاً على الشعب أن كان هناك ديموقراطية.

كما نجد التخطيط الرسمي في الدول غير الديموقراطية عادة ما يكون بلا رؤية متكاملة ولا تخطيط شامل فتنفق الأموال الطائلة في مشاريع قومية عملاقة لا تحقق العائد المرجو منها باستثناء كونها استعراضية تظهر فيها الدولة أو القائمين على إدارتها بالأحرى قوتهم وسلطتهم وكثيرًا ما تتحول هذه المشاريع إلى أعباء حيث تتجاوز تكاليف إدارتها وصيانتها المشبعة بالفساد أرباحها فتتحول لأسباب نزيف من أموال الشعب وهدر لثروته.

لم أتبين ما قاله دكتور محمد قبل أن يبتر الحوار فجأة.

يكفي هذا.

قاطعنا نائب الرئيس الذي لم أنتبه إلى وجهه الذي أحمر غضباً من قبل، قبل أن يستطرد ثائراً:

– لم أكن أتصور أبدًا أن يكون بين أظهرنا من يروج لمثل هذه الأفكار التي لا تخدم إلا الإمبريالية وتسهل مهمة الغزو الفكري لعقول أبنائنا!

كيف يمكن للجامعة التي نعتمد عليها لتخريج قادة لكفاحنا الوطني في سبيل الاستقلال والنهضة أن تردد بها مزاعم الغرب وأكاذيبه التي لا يراد بها إلا أخضاعنا وهزيمتنا ذهنيًا ومن ثم التحكم التام بمقدراتنا!

أردت أن أقول شيء لتوضيح موقفي وقد أصبت بالذعر ولكن بمجرد أن فتحت فمي حتى حدجني نائب الرئيس بنظرة نارية وهو يقول بصوت مسموع "اخرس ".

خرست.. وبدأت أغوص في مقعدي وهو يلقي خطبة عصماء عن ألاعيب الاستعمار ومحاولات بث الفرقة بين أبناء الوطن وواجبنا في التصدي للغزو الفكري.

كنت أحس مع كل كلمة ينطقها بالحبل يضيق حول رقبتي.

لم أكن اتوقع أن الأمر على هذه الدرجة من الخطورة.. هي مناظرة ودوري أن أدافع عن الرأسمالية بينما يدافع زميلي عن الاشتراكية ببساطة، ولكن كان رد فعل الرئيس عنيفاً وكل جملة كان يقولها كانت تتحول لاتهام مخيف يجعل السجون تفغر أفواهها والمشانق تضحك في وجهي المنقمع.

عندما انتهى الأمر أخيراً خرجت من القاعة ثم من الجامعة وقد ملأنى اليأس من النجاة.

ذهبت لمنزلي وأخبرت زوجتي التي تماسكت وأعدت حقائب السفر لها وللأولاد لتذهب لعائلتها في الريف وأوصتني بالتواصل مع عميد الجامعة الذي يعرفني منذ سنوات طويلة ويعلم يقينًا زهدي السياسي ليعتذرعن حماقتي ولكنه في اليوم التالي رفض لقائي وعندما هاتفته أغلق الهاتف في وجهي بمجرد أن ميز صوتي.

لم يصدر قرار رسمي بإيقافي ولكن ألغيت محاضراتى وتولى زميل آخر المواد التى أدرسها، ولم يكن أمامي إلا أن أجلس في منزلي منتظراً.

بنهاية الأسبوع جاءوا..

أيقظوني من النوم.. فتحت عيناي وجدت الرجال المتشحين بالسواد فوق رأسي، أمروني بارتداء ملابسي ثم غطوا عيناي وذهبوا بي إلى مكان مجهول.

وعندما رفعت الغمامة وجدت نفسي أمام محقق شاب وسيم بدأ بالاعتذار عن إزعاجي والطريقة التي فرضتها الضرورات الأمنية وأصران أطلب ما أريد للشرب قبل البدأ في الاستجواب الروتيني البسيط على حد تعبيره.

وبمجرد أن لامست شفتاي كأس الشاي حتى أمطرني بأسئلة معقدة تخص كل تفاصيل حياتي بدقة مذهلة حتى ارتبكت ولم أعرف ماذا أقول وهو يسألني لماذا لم أذهب للجامعة في يوم كذا قبل عامين! ويذكرني بأسماء أقارب بعيدين لم أراهم في حياتي، كنت أعيش حياتي البسيطة بلا تحفظ أو توجس حتى اكتشفت أنني كنت تحت المجهر كل ذلك الوقت ولا أعلم.

لا أدري كم من الوقت مر ولكني استأذنت لدخول دورة المياه مرتين قبل أن يودعني مبتسمًا ومعتذرًا:" أثقلنا عليك دكتور أرجو ألا أكون أزعجتك بأسئلتي الكثيرة "وقبل أن أرد وقف ومد يده مصافحًا وابتسامته الراسخة كجبل ثلج تكبل لساني.. عرفت بعدها أن هذا التحقيق كان في أحد مقرات جهاز الاستخبارات السري الذي أسسه الرئيس وتولى قيادته.

– وهل تعتقد أنك كنت مثار شبهات لتجمع كل هذه المعلومات عنك؟ أم كان هذا يحدث لجميع أساتذة الجامعة وقتها؟

– أعتقد أن الجميع كان يخضع للتدقيق بشكل ما.. هذا الجهاز ذو السمعة الأسطورية كان يجمع كم هائل من المعلومات مستخدمًا عدد مهول من المخبرين من منتسبي الحزب وموظفي الدولة في كافة الدوائر كما كانت كل الدوائر الأمنية والاستخباراتية ملزمة بمشاركة كل معلوماتها معه.. ولكني كنت في غفلة عن ذلك كله، كشخص عادي بعيد عن الصراعات السياسية هذه الأشياء لا تفكر بها لأنك لا تتوقع أن تحدث لك.

الزيارة التالية للرجال المتشحون بالسواد لم تنتهي إلى استجواب مع شاب وسيم بل إلى غرفة تعذيب ثم إلى السجن.

توقف عن الكلام لثواني أرتشف فيها بعض الماء قبل أن يقول سريعًا "أعفيني من ذكر بعض التفاصيل حول ما تم قبل وضعي في السجن فتلك التفاصيل متشابهة مع روايات أخرى عديدة والضحايا كثر".

احترمت خجل الرجل الثمانيني من ذكر ما تعرض له من إهانات فأسرعت بتجاوز تلك النقطة حتى لا تفسد مراراتها اللقاء قائلاً:

– وهل تمت محاكمتك أو عرضت على قاضٍ؟ وما كانت التهمة أصلاً؟

ما ورد في الأوراق الرسمية أن قاضى تحقيق هو من أصدر الأمر بتوقيفي ومن ثم اعتقالي حتى يتم البت في أمري بحكم نهائي، ولكن الواقع أنني لم أشاهد أي قاضي ولا دخلت محكمة ولم تكن هناك دلائل تآمر أو تعاون مع جهات معادية للنظام داخلية أو خارجية ضدي كان سجلى نظيفًا وارتيابهم الجنوني غير مبرر ولكن هذا لم يمنعهم من إلقائي في السجن تحت اسم الجاسوس ١١٢.

وفي السجن اكتشفت جانب خفي من الحياة كان يقبع في النقطة العمياء دائمًا موجود ولكني لم أراه أبدًا.. وجدت في السجن من تحترق به سنوات عمره لأنه قال نكتة وهو جالس على المقهى أو سخر من شعار حزبي دون أن يعرف أنه كذلك أو انتقد رأي صحفي دون أن يعرف أنه يعبر عن رأي الحزب، هؤلاء كانوا مختلفين عن المساجين الآخرين الذين صدرت بحقهم أحكام قانونية، فقد كانوا معتقلين في السجن لسنوات بلا عدد وبلا تهمة وبلا أمل في خروجهم بوقت محدد فلا أحد يعرف أين المعتقلين ولا يسمح لهم بزيارات.

سألت مستفهماً:

–هل كان هذا بداية ظاهرة الاختفاء؟

– نعم، كان المقصود من هذه الممارسة هو بث الرعب في نفوس الجميع، يمكنك أن تقاوم طالما هناك معركة ما، ولكن أن تختفي فلا يعرف أحد هل أنت حي أم ميت فهذا يكسر في نفسك كل إرادة للمقاومة كما يرعب الجميع ويجمدهم فلا يعرفوا ماذا يفعلون لمساعدتك، بينما تصل لمن بالداخل رسالة أعتى من أي عذاب..مصيرك بأيدينا لم تعد شخصًا بل مجرد رقم في السجلات التي نملكها ولا يطلع عليها غيرنا وإن مت هنا دفناك في الصحراء أو أحرقنا جثمانك في فرن غاز بلا تبعات، فنحن من نملك قرار إعادتك إلى الحياة أو إخراجك منها إلى الأبد دون أن تملك أن تفعل شيء.

علقت بصوت متردد:

– وهل حدث ذلك؟ هل مات أحد في الفترة التي قضيتها بالسجن وتخلص من جثمانه دون إعلان أهله؟

تقلصت ملامح وجهه وبدا كأنه يصارع ذكريات أليمة تجتاح ذهنه وقال:

– بالطبع حدث، حتى وإن كان السجن الذي كنت فيه أقل وطأة من معتقلات أخرى كما سمعت من بعض المنقولين إليه من التعذيب البدني إلا أننا كنا معتقلين بلا حقوق ولا بلا أدنى رعاية صحية أو معاملة آدمية، فكان الموت يخطف كل فترة أحدنا ويبقى جثمانه معنا حتى الصباح فيأخذه الحراس إلى حيث لا ندري.

أسرع بتجاوز الموضوع قائلاً:

– ثم مرت خمسة عشر شهراً ووجدت مدير السجن يطلبني، كانت أول مرة يناديني الحرس باسمي حتى أنني أجفلت قليلاً ولم أرد مباشرة، بشرني بصدور الأمر بالإفراج عني وصافحني مهنئاً ثم أخذوني إلى غرفة غيرت بها ملابسي ولم أعترض أن أعطوني ملابس صيفية ونحن في يناير ثم وضعت في سيارة شقت الصحراء إلى قرب العاصمة حيث أنزلوني على الطريق السريع لأستقل ما يوصلني لبيتي بمعرفتي.

أخر الليل كنت قد وصلت لمنزلي ولكني لم أجده، كدت أفقد عقلي وأنا أجد ركامًا مكان منزلي صرخت دون وعي قبل أن يهدئني ويخبرني بمكان أسرتى أحد جيراني الذين تعرفوا على بصعوبة.

كانت زوجتى قد قررت السكن مع عائلتها بالريف حتى أعود أو أدفن وحسناً فعلت، فبينما كنت في السجن اندلعت الحرب وتعرضت العاصمة لغارات عنيفة هدم في إحداها منزلي ولو كانت زوجتي بقيت فيه مع أبنائي لكنت فقدتهم أيضاً.

كان نائب الرئيس قد أصبح الرئيس وأنا تحولت إلى شبح.

عندما خرجت من السجن الصغير وجدت نفسي في سجن كبير، فقدت وظيفتي وتنكر لي معارفي وأقاربي ومنعت من السفروالتدريس وحظر نشر كتبي واتفقت مع زوجتي على الانفصال وترك الأبناء لها تربيهم مع عائلتها حرصًا على مستقبلهم ورحلت أنا إلى هذه المدينة الصغيرة أتعايش على إيراد ميراثي الضئيل.. كنت أظن أن السجن هو محنتي وفي خروجي منه نهايتها ولكني كنت مخطئاً.

توقف لحظات لالتقاط أنفاسه وارتشاف بعض الماء قبل أن يكمل:

– كنت قد تحولت من أكاديمي ناجح يفخر به عائلته وأصدقائه إلى شخص مشبوه يتجنب كل عاقل الاختلاط به حرصًا على سمعته وكانت البلاد قد تحولت إلى ما يشبة الديستوبيا في الروايات، فعندما قام مهاب الدين بانقلابه واستولى على السلطة بدأ عهد جديد من الارهاب وساعدته ظروف الحرب في بث حالة هيسترية بين جموع الناس فبينما كان يلقى خطابه الأول فى التلفاز كان خمسة من الوزراء يُقتلون رميًا بالرصاص بتهمة الخيانة، وعشرات من قيادي الحزب تم اعتقالهم وقتلهم بدمٍ باردٍ باعتبارهم متآمرين، كان هذا قربان مُهاب الدين الأول بمناسبة جلوسه على عرش البلاد ولم تنقطع تلك القرابين أبداً.

هل سمعت بالأسطورة الأغريقية أنه أن ذاق المرء لحم الإنسان مع بعض القرابين فإنه يتحول إلى ذئب؟ هذا بالضبط ما حدث لمهاب الدين الذي ذاق اللحم البشري ممزوج بتوابل السلطة والتبجيل للفعل الدموي فتحول إلى ذئب.

كان الوضع متردي للغاية اقتصاديًا وأمنيًا..كانت السرقة والاختطاف واقع يومي مخيف ولهذا قوبلت اجراءاته القروسطية العنيفة والمتعسفة في كثير من الأحيان بقبول شعبي واسع..عقوبات قطع الأيدى والكي بالنار والشنق في ميادين عامة وقطع صوان الأذن لكل من ارتكب جريمة التخلف أو الهروب من الخدمة العسكرية أو ايواء المتخلف أو الهارب منها وغيرها من العقوبات البدائية مورست على نطاق واسع دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض وسرعان ما تضاعفت حتى فقد الناس احساسهم ببشاعتها من خلال الاعتياد فأصبح من الطبيعي أن تتعامل مع كاشير مبتور اليد أو يقدم لك الشاي نادل كُويَت جبهته بعلامة أكس.

وبعد سنوات الحرب البشعة التى ربطت فيها جثث بعض التجار بأعمدة الإنارة مُعلق عليها لافتات "تاجر جشع" للسيطرة على أسعار السلع الغذائية ولم يعلو فيها صوت على صوت المعركة لم يعد هناك من أصوات إلا صوت الرئيس المنتصر الوحيد في تلك الحرب الطويلة المريرة التي أعلن انتصاره الحاسم فيها بعد توقيع إتفاقية سلام نصت بوضوح على أنه لم ينتصر فيها أحد.

-ولكن كيف سكتتْ القوى السياسية والمثقفون وأصحاب الرأي عن هذا؟ حتى وإن كانت الحروب تقلب المنطق السليم وتدفع الناس إلى الوحشية ولكن لا يفقد الجميع عقولهم فجأة وإن حدث فسرعان ما تعود إليهم بعد زوال العوارض.

رد دكتور منصف:

- الإرهاب لم يترك فرصة لأحد لاستعادة عقله أو أعماله.

مارست الدولة درجة مرعبة من الإرهاب فمثلاً كاتب ومثقف شهير مثل حسان اللوزي خرج من بيته يوماً ولم يظهر إلا بعد أيام وآثار التعذيب جلية على جثمانه وكانت الرسالة واضحة في يمينه التي أحرقت لدرجة التفحم قبل قتله، وقد شاع أن توجد جثامين شباب وشيوخ من المثقفين والنشطاء وقد قطعت ألسنتهم وأيديهم وأحيانًا لم تكن الجثث تظهر أبدًا وكان الاغتيال سلاح ماضي للسلطة لا تتوانى عن استعماله في الداخل والخارج.

صمت دكتور مُنصف للحظات قبل أن يستطرد"ولكن هذا ليس السبب الوحيد".

-لا يمكن أن يستمر الاستبداد في حكم دولة إلا أن كان أهلها يستمرئون الاستبداد، إن سقط النظام فعلى الناس أن يجيبوا سؤال واضح، لماذا كان هذا النظام أقوى وأكثر النظم استقرار في تاريخ البلاد؟

لم يعرف أبناء شعبنا الدولة إلا في صورة جابيّ أو جلاّد.. قرون طويلة جدًا من الاحتلال حكمنا فيها أجانب لا يتكلمون لغتنا سواء شاركونا في الدين أو خالفونا فلم يروا في شعبنا إلا بقرة تذبح أن استنزفت لبنها.. لهذا يكره أبناء هذا الشعب الدولة ويرون الحكومة عَدوا.. فلا تتعجب أن حطم طفل مصباح في الشارع أو مزق مِقعد أتوبيس بمطواة.

ومفهوم الدولة ملتبس في الدول التي خرجت من رحم الاستعمار..فقد أتى الاستعمار ليخرجها من إطار العصور الوسطى ومفاهيمها ومعاييرها وتركها بتجربة مبتسرة لا هي تطورت بشكل طبيعي ولا تركت على حالها؛ فليست دول قومية حديثة بالمعنى الذي يعرفه الغرب ولا هي دول قروسطية كما كانت وكان على الساسة والمثقفين بها أن يملئوا فراغ تاريخي مخيف فبينهم من اختار أن يلحق بركب الغرب بتقليده ومنهم من أراد أن يلوذ بالماضي ويرجع للأصول حتى لا يستمر في الضلال وكلاهما لم يخرج البلاد من الظلام وزاد علي مُهاب الدين البلاد ظلامية والمفاهيم صعوبة

وأشكالاً، فلم يكن يسمح لأحد باعتباره مستبدًا و لا يسمح لأحد بأن يكون محايدًا أو موضوعيًا بل يجب عليه إعلان ولائه المطلق له في كل وقت وكل حركاته وسكناته.

وكما قال رشيد رضا "إن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد وتُساس بالظلم والاضطهاد تفسد أخلاقها وتذل نفوسها ويذهب بأسها وتضرب عليها الذلة والمسكنة وتألف الخضوع وتأنس بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومُكتسبة حتى تكون كالغرائز الفطرية والطبائع الخلقية إذا أخرجت صاحبها من بيئتها ورفعت عن رقبته نيرها ألفيته ينزع بطبعه إليها ويتفلت منك ليقتحم فيها وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه".

ويغير الاستبداد في عقول الناس فتكون أقرب للتعصب والتحيز من الموضوعية والعقلانية فكما تصنف السلطة الناس إلى مؤيد بشكل مطلق أو عدو بشكل مطلق يتسرب لعقول الناس منطقها الأعوج فلا يقيمون لحق الخلاف وزنًا، وتصبح أحكامهم على الأخرين كما يسمعون في الإذاعات ويقرأون في الصحف قطعية متحيزة جامدة وغير عقلانية ولا موضوعية.

أحيانًا كانت تقوم حملات لا عقلانية تعتقل الناس وتغيبهم في سجون غير معلومة وتفتشهم في الطرقات وتقتحم عليهم بيوتهم في منتصف الليل بلا أسباب واضحة..أحيانًا كنت أظن أن الأمر افتعال من الأجهزة الأمنية لتشغل نفسها وتحافظ على مستوى جاهزيتها للقمع وتؤكد على أهميتها القصوى للسلطة وأحيانًا كنت أظن أن الأمر ترسيخ للرقابة الذاتية عند الناس فقد لا تستطيع أن تراقب الجميع ولكن تستطيع أن تفرض عليهم سطوتك والخوف منك بأن يلومهم الأقارب أن صدر منهم كلمات لا تصح أو تحمل النقد للسلطة ويخوفونهم على مستقبلهم وقلوب أمهاتهم وأن تزرع الخوف في قلب كل شخص حتى يصير هو الرقيب على ذاته فيخشى وقد رأى نظيرة يسحل إلى المجهول بلا جريمة واضحة أن يرتكب شبة جريمة..لكن قسوة العقاب لا تخفى الجريمة وإنما تنتج مجرمين أكثر ذكاء وأشد حرصًا وعنفًا فالعاقبة واحدة وخيمة للذنب الصغير والذنب الكبير.

يضرب الاستبداد والقمع العقلانية في مقتل؛ فتجد مثقفين أكاديمين أسيري الخرافات كأجدادهم الجُهلاء يعتقدون في الحَسد والسِّحر اعتقادهم في الفيزياء والدواء، ويكون العلم بالنسبة له قميصًا يلبسه في المعمل ويخلعه على بابه.

لا توجد عقلانية حيث يغيب النقد والاستبداد يعادي النقد ويعادي بالتبعية العقلانية ويدفع بالمجتمع لأسفل حيث التخلف والعشائرية والعلاقات المشوهة في كل بيت ومصنع ومتجر حتى الفراش تنتشر فيه السادية الجنسية وإنزال الألم بالشريك باعتبار الجنس ليس فعل للحب وإنما فعل للسطوة والسيطرة على الأخر وحط من شأنه لإعلاء شأن الذات من خلال العنف والقهر.

يتعلم الإنسان في المجتمع الاستبدادى أن يقمع نفسه حتى لا يحبط أو يؤذى فينكفىء على ذاته ويكبت طموحاته ويسخر منها يتحول بؤسه إلى قدرة الذي يعتبر نفسه كافرًا مذنبًا أن اعترض عليه ويخضع بمذلة للقهر وكأنه يعاقب على ما ارتكب من مُوبقات في حياة سابقة!

وعندما تزول قيمة الفرد وتنحط يلجىء الإنسان إلى الجماعة والطائفة فيتوهم فيهم ضمانة وحماية، وعندما يفقد الثقة في المستقبل يتجه نحو الماضي والخرافة وكل ما يبعدُ ذهنه عن هول واقعه ومأساوية وضعه، ويكون في غاية الضعف أمام كل ما يجهله فتجد الأكاديمي المثقف يخضع للساحر والعراف والشيخ والقسيس وكل من يحدثه بقوة أعلى منه.

ويظهر التماهي مع السلطة وتقليد الناس لملوكهم فنجد الموظف الحكومي يتعالى على المواطنين الذين في كثير من الأحيان يعلونه في السلم الاجتماعى لأنه صاحب سلطة فلا يرتضي ولا يحس أنه يؤدى عمله كما ينبغى إلا بالتعالي عليهم وسوء معاملتهم..وحتى التاجر وسائق التاكسي وكل مؤدٍ لعمل لا يترك فرصة لاستغلال سلطة مهما كانت تافهة إلا اعتصرها لأقصى الحدود..أما في حالة رجال الأمن فالأمر يثقب العيون وكلما صغرت الرتبة كلما زاد التعطش إلى التسلط والبطش فقائد الشرطة يعاملك بآدمية وإنسانية ويلتزم حدود القانون بينما أصغر غفير لا تأمن أن يأذيك ماديًا أو جسديًا وخاصة هؤلاء المنتمين إلى طبقات المستضعفين أبدًا من الفقراء الريفيين.

وفى كل مؤسسة وهيئة يوجد ذلك الصنف، الرجل الانتهازى الذي لا يتورع عن فعل أي شىء من أجل صالحه الشخصى..قَرِّب هذا الشخص وكافِئْه سيظل كالكلب ينبح وينهش أعدائك الحقيقيين والمتوهمين ثم يعود ليتمسح بقدميك في خضوع لتأكده أنه لم يكن ليصل إلى منصبه إلا بتدخلك وفى ظل فسادك..وعندما تضرب الناس وتملئهم بالخوف لن يجد الضعفاء ملاذًا آمنًا سوى أن يقر حبك والولاء لك في قلوبهم ويصفقون عندما تضرب أعدائك ويوهمون أنفسهم أنهم أصدقائك وحلفائك وليسوا مجرد خراف تسوقها، كذلك فعل الرئيس في بداية عهده حيث

جلب للعاصمة المئات من أبناء عشيرته ووزعهم على كافة المصالح والهيئات وبدورهم عينوا من أقاربهم وأصدقائهم مئات أخرين.

كما ينتشر نوع خاص من الحقد الطبقي في بلاد القمع وجمهوريات الخوف.. حيث تجد العامة يمتعضون من نجاح أي شخص ويرونه غير جدير وغير مستحق لما هو فيه من شهرة أو ثروة كلاعبي كرة القدم والفنانين، وذلك في جوهره تماهي آخر مع المستبد الذي يحقد على الناس كلهم ويراهم غير جديرين بالثقة وتقرير مصيرهم ومعرفة مصلحة بلادهم فيستبد بالسلطة وما يستتبعها من ثروة وتحكم في أقدار الناس ومصائرهم.

فيتماهي الشعب المقهور مع المستبد ويكتسب تلك السمة الحقيرة منه الحقد فيرى الجميع إلا من يراهم الحاكم لائقين فيدخلون في زمرته غير جديرين بالثروة والنجاح والمكانة بينما لا يجد غضاضة في سكني عائلة الحاكم نصف الأله القصور وامتلاكهم اليخوت والطائرات الخاصة لأنهم يستحقون بتفضيل الله لهم أن جعلهم جزء من دائرة السلطة الصغيرة.

أما أولئك الضعفاء الذين يبطش بهم الجميع فهم تجسيد حي لمتلازمة المرأة المنتهكة، تلك التي تخضع لمن يأذيها ويبطش بها ولسان حالها أن من يستطيع إيذائي يستطيع حمايتي.

فتقوم تلك العلاقة المشوهة بين الفرد والسلطة حيث تقوم السلطة على السادية مقابل مازوخية الأفراد الذين يخضعون لسطوة السلطة التى تقمعهم بأسباب أو بدون أسباب لأنها سادية تمتلك إيذائهم ولا ترتبط بهم برباط إنساني من أي نوع.

وبالعدوانية والإرهاب يفرض المتسلط الإعجاب به والاستسلام له في حالة مازوخية يقع فيها الضحية في غرام جلادة ويقتنع تمامًا أن موضع التبعية الذليل هو موضعه الطبيعى وينبح على من يرفض هذه المذلة والامتهان بل ويحاول ايذائه بنفسه أو يوشي به.

فتجد كل الشعوب المقهورة تتكلم بلسان واحد لا يصلحنا إلا السوط وتصاب الشعوب كاملة بعقد النقص التى تظهر علاماتها المرضية في الاستعراض الاستهلاكي والتنمر على النساء والضعفاء واحتقار أبناء المدن لأبناء الريف والعكس.

حيث القهر المستمر وانعدام الضَّمان يصبغ المستقبل بالتشاؤم ويسد آفاق الأمل؛ فيتجه الناس إلى المبالغة في الاستهلاك لإشباع الجوع إلى الأمن والتغطية على مشاعر الخوف والقلق ويتحول الناس إلى غابة من الذئاب يأذي بعضهم بعضًا بلا أسباب جدية لتعودهم العنف ولحاجتهم إلى دفع شعور الخوف بممارسة التسلط والعنف فيسقط احساس الناس بأنهم بشر ويتحولون إلى أشياء مبهمة وتصبح ألفاظ مثل الشعب الجماهير العامة مجردة من المعنى تستخدم عادة في سياق جمل حشدية وشعارات جوفاء دون أن تتعلق بحقوق الناس على الإطلاق..يمتص دماء الكرامة من شرايين الناس ويضخ مكانها دماء ممزوجة بالخوف والمهانة.

تسقط السلطة القمعية قيم الحق والمساواة والاعتراف بإنسانية الآخر وحقه في الوجود والسعادة ولا تعترف إلا بقانون القوة فتحول الناس إلى وحوش ضارية تجد قانون الغابة هو الطبيعي وطغيان الأقوى منهم على الأضعف أمر عادي متقبل كما تطغى السلطة عليهم أجمعين.

تربي القسوة والكراهية وتسحق الحب والتعاطف فلا يكون القول بحب الوطن إلا شعار زائف يخفى رغبات عدوانية شريرة في سحق هؤلاء الذين نمقتهم فنسميهم أعداء الوطن والمتامرين عليه..يسحق العنف الجسدي واللفظي والفكري الجميع ويعجنهم الخوف فيغير دمائهم وجيناتهم فيكسبهم طبيعة جديدة فيكون الجميع بها متسلطين عنفاء فلا يكون الزوج رجلا في عين زوجته إلا أن عاملها بقسوة وعنف واحتقار باعتباره السيد والرئيس يضغط على مرؤسه بالإهانات والتحقير ليبذل المزيد من الجهد في العمل والكبير يضرب الصغير لأنه يقدر على ضربة ببساطة فيتحول المجتمع كله إلى أرض كراهية وقهر يمارسه الجميع ضد الجميع ويزدري الضعيف فيها نفسه و ينسب إليها كل نقيصة و يحتقرها فيكون أضف في مواجهة الإغراءات و أقرب للانحطاط من السمو، ويتجبر القوى ويتعاظم في نفسه ويجترء على كل شهوة يشتهيها بلا وازع من ضمير يمارسون لعبه مريضة واحدة من التسلط و الرضوخ.

كنا نريد شعبًا حرًا كريمًا أبياً لا يخضع للاستعمار ولا للاستبداد فجعله الرئيس شعبًا من الخانعين الجبناء يخاف أعظم الرجال شاربًا أن يرفع صوته في مقهى شعبي أو أن يقول راية في قصة شعر موظف في البلدية وأصبح المواطن المثالي الشريف مجرد مخبر يتجسس على جيرانه وأصدقائه وربما أهل بيته حتى.

ورط الرئيس الجميع في العنف ولوث أيدي الجميع بالدماء.. أفهم أن العنف قد يكون ضرورة في بعض الأحيان ولكن هناك فارق بين دماء العملية الجراحية ودماء تسفك لتلطخ بها الجدران وتصبغ بها أيدي ووجوه الجميع.. ورط

أكبرعدد ممكن في الدماء والجرائم حتى يضمن ولائهم المبنيّ على الخوف من العقاب وانتقام من سفكوا دمائهم وأهليهم حتى أن ذبح أحدهم سبح الباقين بحمده أن لم يذبح الجميع.. تحول الرئيس إلى وثن.

كنت في حالة ذهول، أحاول استيعاب ما قاله قبل أن أكمل الحوار الذي لم أتوقع أن يكون بهذه السخونة ولا أن يكون الرجل الهادىء الملامح المنعزل ممتلىء بكل هذا الغضب.

ساد الصمت دقائق بيننا قبل أن أستعيد زمام المبادرة وأسأل:

– ولكن ماذا عن إنجازات الحزب الاشتراكية؟ التعليم المجاني والرعاية الصحية ومشروعات البنية التحتية الضخمة والانشاءات التى لم توقفها سنوات الحرب حتى أصبحت العاصمة محط أنظار وحسد العَواصم المحيطة وإعجاب المنظمات العالمية.

أشاح دكتور منصف بيده مستخفاً وقال:

– لا قيمة على الإطلاق لمنجزات الطاغية لأن ثمنها الباهظ جدًا يعدمها أي قيمة فثمنها ضياع الإنسان وتحول الشعب إلى جمع من الجبناء المنافقين العاجزين عن الاختياروعن قول كلمة الحق.. الطغيان يصيب الشعب بعاهة مستديمة تفقده قوته الروحية.

العالم المتخلف مصاب بعقدة الوجاهة يحتاج لإنفاق أسطورى في سفاهة على ما لا يحتاج ويبدد ثرواته بجنون من أجل المظهر الذي يخفى خواء جوهره، إنجازات الحزب قشرة حضارية تخفى ورائها جاهلية، الأنفاق الذى تم في مشروعات مظهرية استأثرت به العاصمة والمدن الكبرى بينما غاص الريف في التخلف والفقر ولم تتوطن الصناعات ولا تطور الاقتصاد وأشتد كما كان سيحدث لو كانت الأمورُ تجري بنظام وعدل، فقد رفضَ الحزب مبدأ المساواة وأقر الطبقية الظالمة على أساس أيدولوجي فلم يكن ليساوي بين أجزاء البلاد المتباينة في أهميتها للحزب فى توزيع الموارد والمنافع والمشاريع العامة كما كان يحرم المتفوقين و المؤهلين من المناصب القيادية ويهبها لأهل الثقة من منتسبي الحزب وعشيرة الرئيس، ولا إدارة ناجحة إلا بتقييم سليم للفوائد والمخاطر وإسناد الأمور الفنية لأهل الخبرة ووضع خطط طويلة الأمد لتحقيق أهداف عملية وليست استعراضية ولكن سياسة الحزب الإقصائية لم تترك مجالاً لتميز الأفراد ولا استفادة البلاد من عقول أبنائها ومواهبهم.

– وهل ترى أن ذلك كان من الممكن تجنبه؟ هل كان من طريق لإيقاف ذلك المسار الذي تحولت إليه البلاد؟

ابتسم وصمت لبرهة قبل أن يرد:

– هل تعلم ما هو أكثر شيء أندم عليه؟

أنني ظننت في انعزالي عن السياسة وتركيزي في تفتيح عقول طلبتي والاهمام بالعلم والتعلم والتعليم كان كافيًا ولكنه لم يحميني من البطش وتجرع مرارة خيبة الأمل.. لابد من الشجاعة ولابد للمثقف أن يقف ويقوم بمسئوليته في نقد السلطة والاعتراض على ما لا يقبله ضميره وإلا فالنتيجة كما ترى.

– والآن بعد وفاة الرئيس كيف ترى المستقبل؟

تنهد دكتور منصف ورد:

– لقد سمم مُهاب الدين الحياة السياسية ولم يترك من مؤسسة قائمة على أسس صحية وأخلاقية ولا ترك للمعارضة قيادة معتدلة تمارس السياسة بغير السكاكين، وتحت الرماد توجد نار وتحت الطاعة يكمن حقد أعمى.. هذه البلاد ستتفجر كبالون انتفخ ولم يعد لضغطه الداخلى من متسع يتحمله.. لكن ما هو أسوء أن ذلك الانفجار سيكون بلا طائل غالبًا فلا توجد قيادات فعالة ولا مفاهيم سياسية واضحة ولا ثقافة ديموقراطية ولا حزب قويّ.

– إذا أنت تعتقد أن ثورة ستشتعل؟

–هذا مؤكد.. ما يمنع الثورة هو الخوف من الفوضى العارمة التي ستحدث، أن وقعت ولكن بمجرد أن تندلع نيرانها لن تستطيع قوة إيقافها حتى تأتي على الأخضر واليابس.. واليابس أكثر بكثير فسيكون الحريق أسرع.

ولكن لا أرى الثورة القادمة سوي غير انفجار عشوائي مدمر تسقط الدولة التى أصبحت طبل أجوف كلها بسببه إلى أن يشاء الله أو يقوم نظام قمعى آخر.

لا أرَ سوى عنف ودماء جديدة تسكب على مذبح السلطة، ولا يغرنك ذلك الهدوء الظاهري للأوضاع؛ فالاستقرار المبني على الخوف كالبيت المبني على شفا جرفٍ هارٍ لابد أن يسقط أمّا عاجلاً أو آجلا ولكن سقوطه سيكون مدوي.

الشَّيخُ مُحَمَّد

كان لقائنا في عاصمة أوروبية ولكنه أصر أن يكون اللقاء في مكان عام وقت الظهيرة وانتظرته بالمقهى وسط العاصمة قرابة نصف الساعة رغم ملاحظتي لرجال الشرطة السرية يملأون المكان، قد يبدو هذا إغراقًا في التحرز والاحتياطيات الأمنية بالنسبة لمتحدث سابق باسم حزب يعيش في دولة أوربية تكفل له حراسة شرطية على مدار الساعة.

ولكن الشيخ محمد عبد الرازق كان المتحدث السابق باسم حزب الدعوة الإسلامية أكبر مُعارضي علي مُهاب الدين الذي حل الحزب وصنّفه كجماعة إرهابية يحكم على من يثبت انتمائه إليها أو مساعدتها بأي طريقة بالإعدام ودخل معهم في حرب ضروس لم يتورع خلالها عن استهداف قادتهم بالاغتيالات في مشارق الأرض ومغاربها رغم ما أثاره ذلك من أزمات دبلوماسية واعتراضات من منظمات حقوقية وإنسانية دولية.

كانت الحربُ قد انتهت بانتصار ساحق لمهاب الدين الذي بطش بالحزب في صدام دموي شهدته مدينة أداريا جنوب البلاد معقل الحزب وانصاره انتهى بمذابح مروعة عوقبت فيها المدينة كاملها والجماعة ذاتها تشظت بعد تلك المأساة وانقسم الفارون من قيادتها خارج البلاد وكونوا جبهات متعددة تحمل اسمها ففقدت فاعليتها وأي قدرة لها على اكتساب الحلفاء أو تعاطف العالم الذي أمتعض من عنف مهاب الدين قليلاً ثم تعامل مع الواقع واعترفَ بانتصاره وقدرته على محوأعدائه من الوجود.

ولكن ظل قادة الحزب الإسلامي يتحينون الفرص، ويحلمون باليوم الذي يتمكنون فيه من العودة والانتقام مما جري لهم، محاولين في سبيل ذلك الحصول على موطأ قدم في العالم يعترف بهم فيه كقوة معارضة لنظام مُهاب الدين ولكن دون جدوى..

لكن الشيخ محمد لم يشهد المذبحة..

كان والده القيادي في الحزب يستشعر الخطر ويحذر من الوقوع في فخ العنف الذي يعطى لمهاب الدين الذريعة التي يبتغى لسحقهم وبعد ان اعتقل ابنه الوحيد لفترة قصيرة أصر على ان يستكمل دراسته باحدي دور الجوار المتعاطفة مع حزبهم فنجى من مصير والده الذي مات او قتل في المعتقل مع أغلب أصحابه.

في السنوات التالية لمع نجم الشيخ محمد كمتحدث بارع يحل ضيفاً معتاداً في البرامج التلفزيونية التي كرس نظام الدولة المتعاطفة جانب معتبر منها لمعارضي مهاب الدين وساعده ان الجماعة المذبوحة كانت قد فقدت الجانب الأعظم من قيادتها وتشرزم أعضائها في بلاد الله الواسعة بلا قيادات مستحقة لمكانتها بتاريخها النضالي فكانت الفرصة لجيل الشباب المتحمس سانحة.

ورغم حفاوة الدولة المضيفة وكرمها إلا انه سرعان ما أدرك حقيقة وضعه كورقة من أوراق اللعب الكثيرة على مائدة المفاوضات المزدحمة بين قيادات تلك الدولة ومهاب الدين حيث الصراع على النفوذ الإقليمي والمصالح المتشعبة يتطلب دائما أوراق جديدة للضغط والمساومة.

وعندما أبدى الشيخ محمد التذمر من الاملائات المتعددة التي فرضت عليه أوضح له ضابط الاستخبارات المكلف برعايته بما لايدع مجالا للشك أن لا حق له في التذمر وأن الصفقة عادلة فكما تسعى جماعته لتحقيق مصالحها كذلك قيادات الدولة التي تحتضنهم وان كان جمعهم عداء مهاب الدين فما قدمت لهم دولته من رعاية وحماية يستوجب منهم العمل على مصالحها وتقديم فروض الولاء لها عرفانا بالجميل.

وعندما فرضت المصالح الاقتصادية كلمتها وتراجعت الخلافات الايدولوجية بين الدولة المضيفة ومهاب الدين كان الشيخ محمد قد حسم امرة وهرب من تلك البلد التي تحولت لمصيدة.

وضع نفسه في مركب صيد تحمل مهاجرين غير شرعيين دفع كل ما يملك لربانها مقابل ان يعبر به البحر في رحلة غير مأمونة العواقب وبمجرد أن خطت قدماه الساحل على الجانب الاخر من البحر سلم نفسه للسلطات طالبا للجوء السياسي ليبدء فصل جديد من حياته.

كانت سمعته الحسنة تسبقه فتلقاة اخوانه من أبناء التنظيمات الإسلامية المختلفة بالترحاب والعون على بدء حياة جديدة ومرة اخري وجد نفسه في موضع الصدارة وقد خفتت أصوات المعارضين من الدولة التي أحتضنته في الماضى

ثم تحولت لسجن خفي لاخوانه الذين ارتضوا الصفقة الجديدة أن يعيشوا كمقيمين في تلك البلاد دون ان يرفعوا أصواتهم بنقد مهاب الدين الذي صار حليفا أستراتيجياً لتلك الدولة بعد طول عداء.

فأصبح الفرع الأوربي من حزب الدعوة هو من يمثله فعليا على الرغم من عدم اعتراف فروع اخري تحيا في ظل أجهزة مخابرات مختلفة به وأصبح الشيخ محمد المتحدث الرسمي للحزب ووجه الإعلامي المتميز لسنوات طوال قبل ان يطاح به من منصبة ويستبدل بأخر أكثر توافقا مع سائر القيادات في القضايا الخلافية العديدة وان كان اقل حرصا على الظهور الإعلامي ويكتفي بالبيانات الصحفية فلم أحظ بفرصة لمقابلته ابداً.

بدأت الحوار بسؤال مبدئي:

– في عصر الحداثة الذي نحيا به يري كثير من الناس الأحزاب الإسلامية أمراً مبهماً فلا يدركون ماهيةُ أفكارها ولا أي دور تلعب في الدّولة الحَديثة القائمة على مفاهيم المواطنة وسيادة القانون والفصل بين السلطات فما هي رؤية جماعتكم السياسية وما هي أهدافها؟

أسرع الشيخ محمد بالرد الحاضر في ذهنه فوراً:

– الجماعة تحمل حلاً لأنها قائمة على الإيمان.. لا نقول إن الاسلام سيحل مشاكلنا كافة إن التزمنا به بل إن الإسلام إن التزمنا به سيغير معاييرنا للحكم على الأشياء فنرى بمنظور جديد فلا نعتبر ما زرعته الحضارة الغربية الوثنية فى عقولنا نقصاً نقص ولا نعتبر ما زرعه اعلام الحكومة شرفاً شرف.

نريد أن نستبدل تلك الهوية الوطنية الزائفة بهوية أخرى حقيقية قائمة على الإيمان.

فالحقيقة أن هذا النظام نظام طائفي عشائري في جوهرة يعادي الدين والأخلاق ويكره أن يتميز الأفراد أخلاقيًا حتى لا ينكشف فسادهم واستبدادهم ولهذا فهم يتاجرون بألفاظ الحريات الشخصية لتيسيرالانحلال والفساد الأخلاقي وألفاظ الاشتراكية للاستيلاء على أموال النَّاس الخَاصة والعَامة وادخالها فى منظومة مغلقة وحدهم من يستفيدون بها مثلهم كالمستعمرِ يريد الانتاج والاستثمار ولكنه يستأثر بثماره ولا يترك لمن حققوا هذه الثمار إلا الفتات .

بينما نحن نريد أن نكون أحرار حقًا في إعلان ديننا واعتقادتنا فى الصَّواب والخطأ بلا خوف ونحن أقدرعلى حماية الأقليات لأن ديننا يأمرنا بحمايتهم ولكن النظام لا يحمي الأقليات وإنما يبتزهم بتخويفهم من الاضطهاد إن لم يوافقوه على شروره وآثامه ويسكتون عنها.

إن غايتنا إقامة مجتمع متوازن لا يسحق فيه الفرد الطائفة وتحترم فيه الطائفة حقوق الفرد ولا تسقط فيه الأخلاق في صراع الطبقات والفئات على الثروة والمكانة.

إقامة مجتمع مساواة وحقوق وأمة واحدة متماسكة ونحنُ إذْ ندعو إلى تحكيم الشريعة الإلهية فأنما ننفي عن أنفسنا وعن بلادنا رجسُ الأيدولوجيات الزائفة وندعوهم إلى كلمة سواء تحفظ على الجميع حقوقهم ومكتسباتهم وينعم فيها الجميع بشتى طوائفهم بالأمن والحرية وتقوم على رعاية مصالحهم حكومة راشدة من المشهود لهم بالأمانة والكفاءة وتحترم عقائدهم وملكيتهم الشخصية وتحمي حقوقهم بها كمّا تحمى موارد الدولة ويسعى إلى تعظيم الاستفادة منها لجميع الشعب لا أن تستأثر بها طائفة ممقوتة من المتسلطين.

– ولكن الحزب الحاكم يقول إن هدفه نفسه الشيء تقريباً! إقامة مجتمع موحد الهوية قائم على الوطنية ونظام قوي يتصدى للتدخلات الأجنبية ويكفل للبلاد سيادتها التامة وحرية قرارها وبما يحقق إرادة الشعب ككل وآماله في الاستقرار والازدهار!

رد ساخراً:

– وهل فعل هذا الحزب الفاشي أي شيء يتوافق مع الشعارات التي يرددها؟

السلطة التي حزبت الجيش وحولت حزبها إلى تجمع من اللصُوص والسفَّاحين المتعطشين للدماء والدستور إلى مجرد ورقة كوميدية والاستفتاءات التى تخرج دائما بنتيجة ٩٩% كنكتة مكررة سخيفة استهزاء بالديموقراطية التى يتشدقون بها ليست إلا عصابة مجرمين لا يحق لها الحديث عن دولة ووطن ويالبجاحتهم عندما يجعلون الوطنية مرادفًا للخضوع لهم.

تلك الطائفة الجهنمية ليسوا أكثر من ميراث المستعمر الذي لم يخرج من بلادنا إلا وقد زرع وسطنا هؤلاء المخربين ليمنعونه من العودة لأصوله الحضارية والنهضة على أساسها فيكون دائمًا فى موضع التابعِ سهلُ الانقياد يسير

التحكم، فقد نشأ هذا الحزب في ظل الاستعمار وبينما كنا نجاهد لاستقلال بلادنا كان مؤسسوه شرذمة من الطفيليين مُدّعي الثقافة لا يفعلون إلا الجدل العقيم بجلساتهم على مقاهي وبارات وسط العاصمة وبينما كنا نقتل ونعذب في السجون كانت الأبواب تفتح لهؤلاء وأمثالهم لأنهم لم يكونوا أعداء الاستعمار وأنما هم أبنائه الذين صنعهم على عينه محملون بثقافته وفكره ليمنعوا قيام دولة إسلامية على أسس صحية وعادلة توجهها إلى اتخاذ المواقف الصائبة تاريخيًا.

هو يتشدقونَ بالحرياتِ الشخصية وهم أكثر من ينتهكها ولا يُراعي حُرماتها ويحدثونك عن الدولة الحديثة وهم يفصلون من يُضبطْ يُصلي من عمله ويُرغِمون النساء على كشف وجوههم في حواجز المدن بلا داعي إلا إذلالهن.

ولكن عندما تقولون نريد أن نحكم الشريعة يبرز السؤال ماذا تقصدون بالشريعة؟ مخالفيكم يقولون إنهم أصحاب الرؤية السليمة للإسلام وإن رؤيتكم للدين مُتطرفة وقائمة على أسس خاطئة !

قاطعني ممتعضاً:

– عفواً سيد آدم ولكن ما هي ديانتك؟

أغلب السياسيين يحاولون تصنيفك أولاً ثم يجيون على أسئلتك بناء على تصورهم لما يلائم عقلية هذا التصنيف، وأنا لا أحب أن يصنفني أحد، فحاولت أن تعكس نبرة صوتي الاحترافية قدر الأمكان وأنا أقول:

– هذا اللقاءُ سيُنشر على صَفحات جَريدة أوروبية والغالبيةِ العظمى من قرائها ليسوا مسلمين وأحاول أن أطرحَ الأسئلة التي تجول بخاطرهم وأن لم تعكس أرائي الشخصية بالضرورة.

هز رأسه متفهمًا قبل أن يجيب على سُؤالي:

– أن ما يسمونه رؤيتهم للإسلام لا تعدو محاولة تحييده وإلغاء تأثيره في الشأن العام، أنهم يريدون أن يقلصوا الإسلام إلى ممارسة فردية لطقوس مفرغة من المعنى و إلى حِزمة شعارات تردد بِرُوتِينية لينتهي إلى فلكلور شعبي ينتقل من صدارة الحياة والعقول والقلوب إلى المتاحف والذكريات ويريدون استبدال ولاء الدين المبني على العَقيدة الخالصَة بفكرة الدّولةِ بالمفهوم الذي ابتدعه الغرب ولنكون مواطنين صَالحين جَديرين بالحياة في وجهه نظرهم فعلينا أن ننسَ ديننا و

نعبد دولتهم الظالمة ورموزها الزائفة..لا يريدون منّا إلا أن نتراجع عن التمسك بديننا فهو الحائل الوحيد بينهم وبين تحويلنا إلى أمه من الأغنام يستخدمونا كيفما شاءوا، ويوجهونا كيفما شاءوا ويذبحون من يشاءون مِنّا بلا جريرة أمام أعين الباقين بلا اعتراض منهم ولا استنكار.

بنبرة واضحة قلت:

– ولكن ما يقولونه هو أنهم ينحازون لمشروعِ الدولةِ الوطنية التي لا تفرق بين مواطنيها بحسب عقيدتهم، ومهما كانت أخطاءها فهي تمثل الهوية الوطنية الجامعة، بينما أنتم تنحازون لمشروع دولة دينية تقيم ترتيب اجتماعي على أساس طائفي.

تنهد ثم رد:

– هناك مقولة لريتشارد لوينثال أعتبرُها أبلغ تعبيرعن هذا الوضع حيث يقول:" تنتهي محاولة الإنسان للتمرد على الله في عبودية كاملة للدولة، فقد أثمرت محاولته لخلق جنة على الأرض في إيجاد جهنم بدلاً منها ."

الهويات القومية والوطنية لا تعدو في حقيقة الأمر مجرد كونها أصنام حديثة، مثلما رُفعت أنصاب الجاهلية رفعت هذه الشعارات ليُذبح تَحتها الحق والإنسانية والدين وكل معاني الخير فى الناس مقابل أوهام ولاء وانتماء بلا حق.

فقد حولت العَلمانية الولاء والبراء والتأخي الإيمانى إلى الوطن والقومية والطبقة فجعلت الدولة إلهًا من دون الله وبينما أباحتْ الكفر وجحد وجود الله ذاته وخيانة الإيمان تعاقب على خيانة الدولة بالموت وتستبشع أن يخون المرء ما أسموه وطنه زورًا بينما لا تجد أشكالاً أن يخون ربه وخالقه .

فهذه الأوطان المخترعة رسمها الاستعمار فوق خرائطه كتقسيمات إدارية وتوزيع لمناطق النفوذ بين المستعمرين فكيف إذا رحلوا لا تلتئم تلك الأراضي الممزقة بل ونقاتل بعضنا البعض على تلك الخطوط التى رسمها أعدائنا المستعمرون ونصر على أنها تحدد وطناً !

ثم يطلب منك أن تكون وطنيًا حقيقيًا أن تكون على استعداد أن تضحي بحياتك من أجل الوطن وتقتل من يقولون لك أنهم أعداءَ الوطنِ بدمٍ باردٍ واحساسٍ زائفٍ بالفخرٍ.. أيُّ وثنية أكبر من ذلك؟

حاولت إخفاء استنكاري بلا جدوى وأنا أقول:

– إذا فأنتم ترفضون فكرة الدولة الوطنية ذاتها!

"دعنى أوضح لك" رد الشيخ محمد وهو يعتدل في جلسته قبل أن يستطرد قائلاً:

– القومية التي تحول مجموع من الناس إلى شعب ينضوي تحت لواء دولة تقوم على عوامل أساسية هي وحدة اللغة والتاريخ والأرض، ونحن على هذه الأرض نتكلم نفس اللغة وأغلبنا يدين بدين الإسلام متشبعين بثقافته وإن فشى بيننا الفساد بسبب الاستبداد وأعلامه الذي يحض على انحلال الأخلاق وتاريخنا واحد.. فلهذا فالنظام السياسي يجب أن يقوم على أساس الشريعة التي تنظم حياة الفرد والمجتمع والأسرة وتقوم على أساسها الأمة ونتشاركها كتراث جمعنا قبل أن يفرقنا الاستعمار ويرسم حدود وهمية يفرضها علينا ونظم سياسية ويفرضها علينا.

وهذا النظام السياسي يجب أن يجعل نصب عينيه وهدفه الأولى وحدة الامة الإسلامية وإعادتها لسالف مجدها فإن تعذر ذلك وتعددت الدول الإسلامية فليكن فتعددها كتعدد الغرف في البيت الواحد يجمعها الإخاء والحرص على مصلحة الجميع وإن قسمتها دواعي حسن الإدارة.

هذا هو التطور السياسي الطبيعي والمسار التاريخي المنطقي لأمتنا وليس محاولة تقليد الغرب صاحب التجربة التاريخية المختلفة عنا تماماً، فالأوربيين اخترعوا الهويات القومية لأكساب دولهم شرعية وخداع عامة الناس ليقاتلوا في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل كادوا أن يفنوا البشرية بسببها عندما أفرز وعاء القومية الأفكار النازية والفاشية كما أفرز من قبلها الإمبريالية وبرر استعباد الشعوب والسطو على ثرواتها.

ولكن ما حدث هو إقصاء الإسلاميين من المجال العام مِرارًا على يد الاستعمار ثم على يد عملائه من المستبدين الذين بذلوا قصارى جهدهم في تضليل الناس وتزييف وعيهم فتجاهلوا تاريخ البلاد الإسلامي كأنه لم يقع وأصبح تاريخنا ينحصر فيما قبل الميلاد وما بعد جلوس الرئيس على عرشه وتركوا لكل مغرضٍ الفرصة لتشوية التراث والفقه الإسلامي بدعم حكومي واضح فى محاول لمحق الهوية الاسلامية للشعب فأصبح الحسين هو المعتدي على يزيد و أصبح معاوية طامع فى سلطة وعثمان مختلس ولص وعليّ متعصب مستبد وأبو حنيفة فاسد العقيدة والشافعى مختل ومالك منافق وأحمد جاهل.

لي تعليق بسيط قبل أن أكمل أسئلتي قلت له:

– هناك فارق كبير بين الوطنية والشعوبية رغم التشابه الظاهرى..الشعوبية تحيز مجرد عن الحس الأخلاقي والعقلانية، بينما التحيز الوطني تحيز موضوعي قائم على حب المرء الخير لأهله وبلاده، وليس من العدالة التسوية بين هذا والتعصب الأحمق القائم على استمراء الجهالة وكراهية الأخرين بلا أسباب، فالشخص الوطني هو من يمتلك الوعي الأخلاقي الذي يجعله يدركُ أن القول بأنه لا أفضل من ساستنا ولا أعظم من بلادنا هو ذاته القول لا أفضل من عاهراتنا، حيث أن انتمائه لوطنه لا يفقدة تمييزه بين الصَّواب والخطأ وموضوعيته، فلا يجب أن نخلط بينهما.

أما السؤال فهو عن طبيعة تلك الدولة التي تطمحون لإقامتها فالجميع يعلمُ أن الإسلاميين ليسوا ديمقراطيين وإنما مَخيلتهم تميل دائمًا إلى أسطورة المستبد العادل بينما تنفر من أفكار الفصل بين السلطات وسيادة الشعب والتي هي أفكار جوهرية في بناء الدولة بعصرنا ويجدونها أفكار غربية لا تلائم عقولهم ولا ثقافتهم.

رد الشيخ محمد:

– إن الحضارةَ العربيةَ الإسلامية تميزت عن سائر حضارات العالم أنها حضارة فقهية اعتمد فيها المسلمون على الكتاب والسنة وما استمدّ منهما في مواجهة التراث الحضاري والقانوني للأمم التي دخلوها..فالأحكام المستمدة من القرآن والسنة تضخمت مع الوقت والتجارب باستعمال القياس والمصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها من الوسائل العقلية حتى غطى الفقه الإسلامي كل مناحي الحياة فأصبح يمكن القول بلا مبالغة أنه لا توجد حركة ولا سكون بدون حكم فقهي يجعلها تقع في تصنيف الحلال أو الحرام أو المندوب أوالمكروه أوالمباح ومن فيضِ هذا النبعِ تستمد القوانين التي تطبق في الدولة ويتقبلها المجتمع لأنها تلائم ثقافته وأحكام ديانته وليس هذا بالأمر الغريب فأهل القانون يعرفون أن مصادر القاعدة القانونية هي الدين والعرف ومبادئ العدل والإنصاف والتشريع الذى ينشأ لمواجهة خطر أو تحقيق مصلحة للمجتمع .

وهكذا فالشعوب الإسلامية إن كانت حرة مستقلة القرار فقوانينها ستكون معبرة عن ثقافتها ومصالحها ولذلك فالطبيعي أن تكون قوانينيها مستندة على الشريعة بحيث يتخير من الآراء الفقهية ما يحقق مصالح المجموع وإما غير المسلمين فيتمسكون بحقهم في المواطنة الذي كفلته لهم الشريعة الإسلامية كما كفلته لأجيال من قبلهم.

علقت مبتسماً:

– وماذا الذي يضمن لهم حقوقهم بخلافِ قناعَتكم؟ وهو أمر غريب أن تعلق حقوقك وحرياتك على أوامر ونواهي دين لا تعتنقه! وخلاف الدين في حد ذاته مظنة العداء، فكيف أؤيد من يرى عقيدتي باطلة يجب محوها وتصحيحها في حكمي وتولى مقاليد الأمور في بلادي؟

ثم عقبت بذات الابتسامة:

– حتى أنك سألتني عن ديانتي منذ دقائق وأظن حوارنا كان سيختلف بحسب إجابتي!

لم يظهر عليه الغضب كما توقعت وإنما أطرق يفكر قليلاً قبل أن يجيب:

– هذه مسألة هامة بالفعل، لفترة طويلة كنت مقتنعاً أن حالة عدم الثقة بين الإسلاميين وغيرهم سببها الأوحد الحرب الإعلامية التي شنتها الأنظمة الاستبدادية.

الدين ذاته تعرض في العصر الحديث لهجمة عنيفة على يد الدول الملحدة حيث ولأول مرة في التاريخ المعروف يصبح غالبية البشر رسميًا على الأقل مُلحدين تبعًا لدولهم التي شنت حربًا عنيفة واجراءات قمعية متعسفة ضد الدين والمتدينين.

ولكن مع الوقت تغيرت قناعاتي وأصبحتُ أرى لزوم الضماناتِ الدستورية التي تلزمُ الجميع وتضع كافة الأطراف على قدم المساواة، وإنّ بناء الثقة يستلزم وقتاً والكثير من المرونة لإظهار حقيقة الرغبة في العيش المشترك سواء مع من يخالفوننا في العقيدة أو يخالفوننا في الرأي.

باغته بالسؤال:

– ولماذا فقدت منصبك كمتحدث باسم الحزب؟

أجفل للحظة قبل أن يرد:

– كلنا يؤدي واجبه بقدر طاقته ولا أحد يستمر في وظيفة للأبد، تركت مكاني لزميلٍ ربما يكون أقدر قدرة مني على التعبير عن أفكار الحزب.

رددت مبتسماً :

– وما هي أفكار الحزب التي لم تعبر عنها كما ينبغي؟

أليست تصريحاتك بقبول الآخر والتي عدت ليبرالية هي السبب في ثورة أعضاء مجلس شورى الحزب عليك واتهامهم لك أن طيلة المكوث في أوروبا وخلطتك بالعلمانين قد أنعمت جلدك.

تجاهل الشيخ محمد نبرتي الساخرة ورد قائلاً:

– ليس بالضبط، هناك خلافات في الرأي بالحزب كما توجد في أي حزبٍ آخر وأمر طبيعي ألا يجدني الجميع موفقًا في كافة تصريحاتي، وهذه وظيفة الشورى أن يتداول المخلصين القضايا والمواقف المختلفة ويدل كل منهم بدلوه ويعلن ما يراه الأقرب للصواب ورضوان الله وتحقيق مصلحة الجماعة والبلاد.

أسرعت بطرح سؤال جديد فقلت:

– بخصوص الشورى التي يطرحها الإسلاميين كبديل للديمقراطية، هناك العديد من الأسئلة التي تدور حولها.. فأولاً يُثار اعتراض مبدئي أنكم لا تمثلون الإسلام وإنما جَماعة مِن المسلمين لديهم رؤية سِياسية معينة فكيف تفرضون على سائر الناس اختياراتكم باعتبارهَا الشّريعة الإلهية واجبةُ الاتباع؟ فأنتم تختلفون عن سائر الأحزاب المدنية التي أيا كانت أيدولوجيتها لا تدعي أنها تطبق صحيح الدين وتربط بين الصواب السياسِي والصَّواب الديني وتَصِمُ مُعارضيها بأنهم ليسوا فقط على خطأ سياسيٍ وإنما هم ضالين دِيانة أيضاً! فما قيمة الشورى بين أناس متفقين عقيدة وفكراً تجمعهم رؤية واحدة داخل جماعتكم بالنسبة لمن هم خارجها؟ فمن تختارونه لمجلس الشورى تختارونه على معايير معينة لا تتوافر لغير أعضاء جماعتكم الذين لديهم معايير أخرى.

كنت أراقب ملامح وجهه وأنا اتكلم ولم يبدو عليها التذمر كما توقعت بل كان ينصت متأملاً بارتياح وكان هذه الكلمات دارت في ذهنه من قبل ثم رد قائلاً:

– الامة الإسلامية لا تحتاج لأئمة معصومين فكما قال ابن تيمية "عِصمةُ الأمة تغني عن عصمة الأئمة". وما نقدمه للناس هو اجتهادنا وهو أفضل ما قدرنا عليه فمن أتى بأفضل منه فهو أولى مِنا بالاتباع وأحقُّ بالنصْر فنحن لا ندعى أننا مَعصومين أو أن رؤيتنا هي الحل النهائي المطلق كما يقول أصحاب الحَتمية التاريخية من الماركسيين.

توقف للحظات قبل أن يكمل:

– وبشكل شخصي أعتقد أن المجتمعاتِ التي تحوي قدر كبير من التعددية تحتاج قدر أكبر من المرونة والتسامح مع الخلاف وأن أي حزب إسلامي يجب أن يقدم نفسه كأحد المشاركين والفاعلين في المجتمع يمثل فئة منه ويعبر عن أفكارها لا أن يحاول صبغ المجتمع كله بصبغته فالتجربة علمتنا أن محاولات الإسلاميين لجمعنة المجتمعات حيث تنتشر جماعتهم لتبتلع المجتمع كله وليس فقط تسيطر على الحكم به محاولة سيئة العواقب.

أسرعت بالتعقيب:

– إذًا فأنت تعتقد في مبدأ سيادة الشعب.. حيث تكتسب الأفكار قوتها عندما تتحول لقوانين ملزمة من خلال رضاء الشعب ككل عنها بغض النظر عن موافقتها لأراء فقهية أو أحكام شرعية من عدمه!

بلهجة حاسمة قال:

– ليس بشكل مطلق بالطبع، أصول الدين والعقيدة ليست محل نقاش ولا تخضع لقوة الأغلبية وإنما هي ثابتة لأن الله وحده من يُحلل ويحرم وليس الناس وإما ما دون ذلك من مسائل تشريعية وإدارية فهي من حق عموم الناس يتشاركون القرار فيها بحسب ما يرون الأصلح لهم بلا وصاية عليهم من أحد.

كنت أعرف أن سمعه الشيخ محمد جيده في أوساط غير الإسلاميين باعتباره رجل متفهم يستطيع قبول حجة الآخر ويعترف بحقوقه أكثر من غيره من المتشددين ولكن هذا كان أكثر مما توقعت فتابعت:

– الحقيقة أن كلماتك تنفي أغلب المخاوف التي سببت التحفظ ضد انخراط الإسلاميين في العمل السياسى.. فإن كنت تريد المشاركة باعتبارك جزء من المجتمع ولست قَيماً عليه وتعترفُ لغيرك بحقوق المواطنة والحريات الأساسية فلك

كل الحق في المشاركة السياسية في إطار ديموقراطي ولكن هل تعكس هذه الكلمات ذهنية أغلب الإسلاميين أم أنهم لايزالون يرون القطيعة الأيدولوجية والمعرفية التامة بين القلة المؤمنة والمجتمع الجاهلي نقطة انطلاقهم وأساس عملهم؟

وكذلك فالواقع أن الأحزاب الإسلامية هي في النهاية أحزاب تصيبها أمراض التحزب والاستقطاب وبقوة أكبر لأنها تعتمد على الدين وتري أعدائها السياسيين أعداءً للدين وإن كانوا إسلاميين مثلهم وقد رأينا الجماعات الإسلامية تتناحر وتدخل في صِراعاتٍ داميةٍ في دول عديدة فهل هناك من ضمانة لمنع تكررهذا؟ وإلا يستعمل الدين كوسيلة كوسيلة للبطش بالمعارضين وتكوين شعبية قائمة على الطائفية والتحريض الديني وجحد حقوق المخالفين والتعسف ضد أصحاب الآراء المغايرة؟

تنهد قائلاً:

– نظرياً لا ضمانات لشيء.. الضمانة الوحيدة هي توافر حالة الرغبة في العيش المشترك وحسن النوايا بين كافة الأطراف السياسية فتنتج ثقافة متسامحة بلا تعنت ضد أحد ولكن خطر فتنة السلطة وإفسادها لمن يحوزها دائماً حاضر.

حاولت أن تكون ابتسامتي ودودة قدر الإمكان وأنا أقول:

– هناك بعض المحاولات لدرء تلك الفتنة وتجنب فسادها من خلال استقلال القضاء والأجهزة الرقابية وضمان حرية الرأي والصحافة وتوسيع دائرة المشاركة السياسية وتقسيم السلطات والفصل بينها.

ضحك وهو يرد هازاً رأسه:

– الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، نعمَ التجربة الإنسانية في الديمقراطية كما في كل نواحي الحياة يمكن الأخذ بها فهي جزء من التراث الإنساني ككل وليست ملكاً للغرب أو للشرق ولكن نأخذ منها ما يلائمنا بوعي أننا نأخذ ما يساعدنا في أصلاح دنيانا وليس تقليد أعمى.

عقبت قائلاً:

– وماذا ترد على بعض العلمانيين الذين يصرون أن أوروبا حققت مُنجزاتها الحضارية من خلال الثورة على الدين وإخراجه من إطار الحياةِ العامة وأنّ السبيلَ الوحيدَ للحاقِ بركبِ الحضارةِ هو إقصاء الدين؟

– هذا من الأراء التعسُّفية الشائعة.. القول بأن النهضة الغربية نتجت عن أقصاء أوروبا للدين ومن ثم تم إفساح المِجال للعقل لتحقيق التقدم المادي الملموس بعد إزالة العراقيل العقلية والنفسية التي وضعها الدين فى طريق تقدمها !

ويشيع ذلك القول المتعسف بين العلمانيين ليؤسسوا رفضهم لأي دور للدين فى الشأن العام من ناحية وبين الإسلاميين من ناحية أخرى وهذه المرة للتدليل على فساد العقيدة المسيحية للغرب التى أصبحت عائقًا أمام تقدمه فكان من الواجب سقوطها.

لكن الحقيقة التي يكتشفها كل مدقق في التمرحل التاريخي أن ما ثارت عليه أوروبا وكان عامل مهم في نهضتها كان الاستبداد سواء كان استبدادُ الملوكِ أو استبدادُ الكنيسةِ؛ فتركت هذه الثورة الفرصة للشعوب في حكم أنفسها بناءًا على مصالحها وتحقيق رخائها.

عقبت قائلاً:

– قد صاحب هذه الثورات التي غيرت وجه الحياة في الغرب والعالم الكثير من العنف! فهل تعتقد كما الكثيرين أن التغيير القادم لابد أن يكون من خلال صدام دموي؟

عقد حاجبيه وزفر بتوتر قبل أن يجيب:

– الكثيرين يقولون إنه لم يحدث تغيير كبير في التاريخ بلا عنف وتاريخ بلادنا يجعل العنف الطريق الأوضح للسير فيه وإن كانَ الأكثر خطورة.

لكل فعل رد فعل مماثل فى القوة ومضاد في الإتجاه.. هكذا تقول الفيزياء وعندما يستمر الحزب الفاشي فى السلطة طويلاً فإنه يستدعي بالضرورة التطرف.

حيث تمثل السلطةُ الاستبدادية القالبَ الذي يأخذ مُعارضيها شكله فيكونون مُعارضين فاشيين للفاشية باسم الدين أو الوطنية أو الاشتراكية أو حتى العلمانية الليبرالية فنجد سخافات المطالبة بمحقِ التراث وحظر الدين ممن يسمون أنفسهم ليبراليين!

ثم أن السلطة أوغلت في الدماء والإرهاب فسجنت الشعب بكاملة في زنزانة من الخوف والقهر والله وحده يعلم ما سيفعله المارد أن كسرَ أغلاله، فقد جهدوا في تعليم الشعب طيلة عقود طويلة لغة القسوة حتى حذقها وأصبحت لغته المفضلة للتعبيرعن نفسه .

- هل ينتقم المجتمع ممن قمعوه؟

- في تراث العرب أن القتيلَ يخرجُ من هامته طائر يُسمّى طائر الصدى يظل يصرخ حتى يثأر له.. ولكن قد يرضيه القصاص بسفكِ دماءِ القاتلِ أو دماء آخرين من قبيلته وأحيانًا يظل يصرخ ويطلب الدماء ولا يكتفي منها مهما كانت غزيرة!

أحسست بالخوف من المستقبل يتسرب من بين كلماته ولكني أكملتُ :

- ربما كان لهذه الخوف من ثورة فوضوية دور فيما حدث!

هل تظن أن لو كان الرئيسُ أقل عنفًا أو وحشية أليس ممكن أن يكون هذا دافعًا لأحد الجنرالات للقيام بانقلاب عليه؟ وأنتَ تعرف تاريخ بلادكم في الانقلابات العنيفة.. وكذلك المحيط الإقليمي والأوضاع الدولية كانت تجعل العديد من القوى الخارجية تحاول كسب حلفاء سياسيين لهم.. الحزب القومي الاشتراكي ذاته حظي بدعم عدة دول ومعونة أجهزتها الاستخبارية في طريق كفاحه نحو السلطة.. بالتأكيد كان الرئيسُ يعي ذلك كله ويعلم أن الرَّحمة قد تبدو كبادرة ضعف يتم على إثرها افتراسه كأسد عجوز!

رد مستنكراً:

– وهكذا فالمفروض أن يتم ذبحنا كالنعاج ونعلق كالذبائح على يد سفاحي الرئيس من أجل استقرار الوطن؟ لست رومانسيًا ولا غر صغير.. أعرف أن السياسة تحتاج لبعض القسوة في كثير من الأحيان وأن الدولة ذاتها نشأت كأداة قمع قبل أي شيءٍ آخر ولكن هل ترى قمع الرئيس كان ضروريًا أو حتى عقلانيًا؟

العنف كله كان لتكريس سلطاته ورفعه فوق أعناق الناس لينظروا إليه كما نظر هو لنفسه نصف إله تنصب له التماثيل فى الميادين وتوضع صورة في غرف المعيشة وغرف نوم المراهقات .

لم يكن القمع من أجل الوطن وإلا كان عقلانيًا مشروطًا بجدواه ونفعه.. يمكن فهم مصادرة جريدة أو منع اجتماع خشية أن يتحول الأمر إلى ما هو أخطر ككرة ثلج ولكن ما نفع التعذيب وإشاعة الذل والمذابح التي جرت في طول البلاد وعرضها.. ما نفع أن يرغم الناس على الهتاف للرئيس أو حتى الوطن؟

لا لم يكن القتل من أجل غاية سامية ما ولا كان باضطرار من غير رغبة بل كان تجسيد لنفس مريضة تختلق من الأسباب ما يمكنها من إيذاء الناس.

اختتمت الحوارَ بسؤالي المفضل "وبعد".. كيفَ ترى المستقبل؟

طال صَمته هذه المرة وشرد بعيداً قبل أن يرد قائلاً:

– لا داعي للتوقعات.. الدنيا تنقلب أحوالها بين عشيةٍ وضُحاها.. دَعنا فقط نتمنى أن يقدر الله لبلادنا الخيرويهبُ شعبنا السلامة.

نائبُ الرَّئيس

كان مُهاب الدين قد وصل إلى قمة السلطة عندما عينه رئيس الجمهورية اللواء البكر نائباً له كأصغر من تولى منصب بهذه الخطورة في تاريخ البلاد والمنطقة، ولكن القمة دائماً محط أنظار الصُّقور.

كانتْ الندوةُ التثقيفيةُ التي جمعت مُهاب الدين بقادة الأفرع والعديد من ضباط القوات المسلحة وعدد من قيادي الحزب تبدو مبتذلة بشعاراتها الحَماسية الفارغة من المعنى والصراخ الحماسي غير المبرر.

كان مُهاب الدين يرى في عيون بعض الضباط خاصة الشباب منهم الكثير من الغضب وعدم الرضا عن وصوله لتلك المناصب الحسَّاسة وحُصوله على رتب عسكرية رفيعة في هذا السن الصغير وهو لم يكمل دراسته العسكرية أصلاً، فكما كان يقول عن نفسه "أعرف الذين سيخونني قبل أن يعرفوا هم أنفسهم "، فظل طِيلة الندوة صامتاً يدخن ويقرأ وجوه الحاضرين وجعل كلمته في النهاية كختام للندوة وعندما جاء دورة أسرع بترديد الافتتاحية الدبلوماسية المعهودة قبل أن يفاجيء الجميع بالسؤال مبتسماً:

- من منكم يفكر في القيام بانقلاب؟

عقدت الدهشة السن الجميع قبل أن يكمل:

- إن التفكير في القيام بانقلاب طبيعي في ظروف البلاد التي لم تزال في طَور تكون نظامها السياسي قبل ترسخه فيفكر الكثير من الضباط أن بإمكانهم توجيه دفة البلاد إلى الخير والنجاح من خلال الاستيلاء على السلطة.. ولكن الحقيقة أن هذا الاعتقاد لا يعدو كونه باعث شخصي وليس أكثر.

أخذ آخر نفس من سيجارته قبل أن يلقيها قائلا:

- تعرفون نكتة أنك إن ألقيت عقب سيجارتك من بلكون فهناك احتمال ٥٠% أن يسقط على الأرض و٥٠% أن يسقط على رأس رجل يظن أنه أولى الناس بقيادة البلاد؟

كان الكل لايزال في حال صدمة فلم يضحك أحد .

استكمل حديثه باسماً:

– ولكن في الحقيقة لا أعتقد أن مسألة الانقلاب هذه ممكنة الوقوع في بلادنا كما تحدث في بلاد أخرى وذلك لسببين ثانوي وجوهري .

أما السبب الثانوي فهو أن من يفكر جليًا في محاولة كهذه يدرك أنها محكوم عليها بالفشل من قبل وقوعها فالذي يجعل بلادنا متماسكة هو وحدتنا سياسيين وعسكريين بإزاء أعداء الداخل والخارج وإن كُسرت هذه الوحدة بخيانة فلن يهنأ الخائن بانتهازيته قبل أن يعاجله طامع آخر يرى في نفسه القدرة على دحره أو طعنه في الظهر.. فلهذا نحن نبني قواعد الولاء في بلادنا العزيزة ليس لأشخاص وإنما للوطن ولقيمنا ومبادئنا .

أما السبب الجوهري فثقتي المطلقة في وطنيتكم وولائكم لبلادكم وإيمانكم بمبادىء الحزب الذي حررنا وسيصل بنا بمشيئة الله إلى ما نتمنى من رفعة وازدهار لوطننا.. فلا يمكن تصور وجود خائن بيننا وإن أسقط الشيطان أحدنا فمن حوله لن يسمحوا له بأن يدمر بلادنا من أجل أوهام مصالحه الشخصية .

ضجت القاعة بالتصفيق والهتافات.. ودقات القلوب الخائفة.

الكل كان يعلم أن مُهاب الدين تصله تقارير مفصلة بكل صغيرة وكبيرة عن كل ضابط وعضو بالحزب وإن الجميع عليهم اتخاذ الحذر من أقرب الناس إليهم فاستخبارات مُهاب الدين تكمن بين شراشف أسرتهم وبات واضحًا للعيان أنه لن يسمح للغفلة أن تنتابه للحظة.

عندما خرج مُهاب الدين من السجن في أطار مبادرة الرئيس حافظ مع غيره من النشطاء السياسيين والحزبيين كان قد عزم ألا يعود إليه ثانية ولو كلفه ذلك حياته، وفي خلال أيام معدودة كان قد أدرك اللعبة التي يلعبها الرئيس حافظ لضمان بقاءه بمنصبه من خلال إشعال صراع ديوك بين الأحزاب وضرب بعضها ببعض ولم يكن ليقبل بلعب أدوار الدواجن.

كان موقفه واضحاً من أول يوم وفي أول اجتماع أعلنها صريحة " لن نكون بيادق في لعبة شطرنج حافظ."

لم تكن رؤيته في الصدام مع الرئيس حافظ لتحظ بموافقة أعضاء الحزب الذين أثروا السلامة ولكن سرعان ما وافقوه الرأي في ضرورة التخلص من حافظ عندما بدأ يصفى وجودهم من الجيش والمؤسسات مرة أخرى وظهر واضحًا تحريضه لأعدائهم الحزبيين عليهم.

ولكن رشاش مُهاب الدين تعطل وقتل أحد رفاقه في محاولة الاغتيال الفاشلة سيئة الأعداد واضطر للهرب والاختفاء قرابة شهرين صدر ضده خلالهما حكم غيابي بالإعدام وقبض على عشرات من رفاقه وظهر أن تهوره واندفاعه في محاولة التخلص من حافظ رغم اعتراض اللواء البكر قد تحول إلى خنجر يذبح الحزب ويمحى وجوده من الحياة للأبد.

ولكن..شاءت الأقدار أن يتوفى الرئيس حافظ بأزمة قلبية مفاجأة بعد أن تسبب خوفه من المؤامرات في الإطاحة بالعديد من الضباط الأقوياء لتخلو الساحة للواء البكر الذي قفز لمنصب رئيس مجلس الثورة مستخدما طريقته الهادئة في إقامة التحالفات حيث تقاسم السلطة مع اللواء النايف ممثل العسكريين الذين تولي منصبي رئيس الوزراء ونائب الرئيس بينما جلس ناصر حسان على كرسي رئيس المخابرات وحول الجهاز إلى أداة قمع دموية للمعارضين الذين لم يعد التهديد الأكبر لهم هو الاعتقال وإنما التعذيب والقتل بلا رحمة على يد ناصر الذي اكتسب سمعة سفاح سادي بسرعة فائقة.

وعلى الجانب الآخر صعد الحزب إلى الصدارة وأخرج أعضاءه من السجون وأسقطت الأحكام القضائية التي صدرت ضدهم فعاد مُهاب الدين للعاصمة حيث تزوج ابنة خاله أخيراً وقد رسخ في وجدانه أن عهد السجون والمطاردات قد انتهى.

توطدت علاقة مُهاب الدين واللواء البكر الذي ظهرت علاقته بالحزب للعلن ووقف مُهاب الدين يدعمه في انتخابه أمين للحزب رغم رفض عدد من قيادته الذين تحفظوا على ربط مصير الحزب برئيس عسكري وساهمت العلاقات العائلية والعشائرية الوثيقة في تقوية الارتباط بين الرجلين فقد كان البكر مغرمًا بالعمل السري ويحرص على كسب ولاء العشائر التي رأها أهم من الأحزاب فكان توافقه مع مُهاب الدين الذي كان يدعوه ابنه الثالث تاماً.

كان مُهاب الدين يزرع أبناء العشيرة في كافة الأحزاب والمناصب ولحماية الرئيس البكر الذي حرص على أن يكون لقب الأب القائد مصدقاً عنه فلم تتلوث يداه بالدماء ولا ارتبط اسمه بالعنف بينما قتل العشرات من منافسي البكر

السياسيين ومناوئيه المحتملين أو أبعِدوا بهدوء على يد عليٍّ مُهاب الدين رجل البكر الأول ونائبه فعليًا قبل أن يحصل على اللقب الرسمي، فصفّى أشد الضباط خطورة بالإبعاد خارج البلاد تحت ضغوط ومفاوضات أن كانوا من القيادات و أصحاب الرتب الكبيرة أما الشباب الطموح الذين كان مُهاب الدين يتعرف عليهم بسهولة كأنما ينظر في المرآة فيرى الجوع إلى السلطة ناضحًا في وجوههم فالسيارات الطائشة وأسطوانات الغاز الفاسدة كانت كفيلة بوضع حد لطموحاتهم.

وكان خوف البكر من المؤامرات أو قيام انقلاب جديد باعثاً له لدعم مشروع مُهاب الدين في إقامة جهاز استخباراتي خاص بالحزب بالتوازي مع أجهزة الدولة الأمنية التي لم يكن يثق في كفائتها ولا ولائها للنظام، وبالفعل بدء مُهاب الدين في زرع عملائه وجواسيسه في كل مؤسسة وتنظيم متحدياً غضب اللواء ناصر رئيس المخابرات.

كان مُهاب الدين قد أعلن لأعضاء حزبه رؤيته للوضع بوضوح حين قال (لتنجح الثورة لا بد لها من سيف ودرع..لا يمكننا الاعتماد على حسن ظننا بضباط الجيش البرجوازيين في أن لا يرتكبوا حماقات ولا نستطيع توهم أن الأجهزة الأمنية التي بذلت قصارى جهدها في محاولة منع ثورتنا أن تحول موقفها ١٨٠ درجة لتكون في خدمة الثورة لأننا اليوم في مواقع السلطة..سيحاولون الانقلاب علينا وسيحاولون الإطاحة بنا وسيحاولون استعداء بعضنا على بعض لا يشك أحدكم في هذا طرفة عين..الثورة المضادة قادمة وإن لم نتصد لها بعنف ستطيح بنا أو تضعفنا لدرجة تجعلنا عرضة للانحناء أمام أي ضغوط داخلية أو خارجية وأدوات السلطة الحالية لا تصلح لمواجهتها).

وبعد عامين كان جهاز مخابرات الحزب قد أثبت أنه بالفعل درع وسيف، دخل يومها مُهاب الدين إلى مكتب الرئيس وبيده ملف صغير وضعه بين يديه دون أن يتكلم، وجلس يشاهد وجه البكر يتحول للأصفرار وجسده يرتعش برعب.

كان كابوس البكر قد تحقق وبين يديه تقرير تفصيلي بخطة للانقلاب عليه يقودها النايف وناصر وأغلب رجال الجناح العسكري من السلطة ولم يكن البكر يعرف كيف يتصرف، ولكن مُهاب الدين كان يعرف.

عندما تم استدعاء اللواء النايف للقصر الجمهوري بذريعة مناقشة اتفاقية تجارية مع إحدى دول الجوار لم يكن النايف يتوقع ما حدث، ولكن عندما دخل مُهاب الدين غرفة الاجتماعات وطلب من النايف الخروج معه بدون لفت

الأنظار فهمَ النايفُ الأمر بسرعة واشتعل غضبه وشهر مسدسه فى وجه علي مُهاب الدين صارخاً " أنتَ تقبض عليّ يا كلب من تظن نفسك."

ولكن علي مُهاب الدين ذكره أن عائلته تحتاج منه التفكر بهدوء وأنه يمنحه الفرصة للخروج الآمن بينما غيره لن يكون رحيمًا وأن زوجته وابناءه ينتظرونه بالمطار وسرعان ما خرج النايف مع علي مُهاب الدين الذي أمر حراس النايف ومرافقيه بالعودة لمنازلهم قبل أن يتجه إلى المطار ومنه إلى أوروبا بلا رجعة.

أما ناصر فقد جن جنونه وهو يرى مُهاب الدين الذي أقسم أن يذيبه في برميل حمض، قد استبق ضربته بضربة أشد صَفّى فيها رجاله فاختطف عدة قادة من الجيش والشرطة وطلب المفاوضة ولكن مُهاب الدين قرر أن لا يتولّ الجيش التصدي له واقتحم هو ورجاله من الحرس الرئاسي وأمن الحزب المزرعة التي تحصن بها ناصرحيث قتله وأغلب رجاله والرهائن وفي المحاكمة التي جرّ إليها كل من شكّ في ولائه قضى على أغلب أعدائه الحزبيين المحتملين بتهمة المؤامرة.

ولم يكن من منافس لمهاب الدين بالحزب إلا السياسي المحنك صالح عبد الله وهو رجل مثقف وقوي الشخصية محل إعجاب وثقة زملاء الحزب والعامة الذي كان وقتها في رحلة خارجية لتعريف الدول المحيطة بالنظام الجديد ومد أوصال التفاهم معهم.. لكن في أول اجتماع للرئيس بقيادات الحزب بعد محاولة الانقلاب الفاشلة أعرب عن غضبه أن صالح عبد الله كانت له اتصالات مع الضباط الذين حاولوا الانقلاب.

جرفت الحماسة البعض فطالبوا بإعدام صالح بينما طالب الآخرين الذين لم يصدقوا هذا بالمزيد من التحقيق في الأمر بينما انحاز مُهاب الدين الى البكر وقال إن كلمة الرئيس كافية ولا تحتاج لأدلة وبراهين عليها .

ولكن الرئيس طلب تأجيل البت في الموضوع وبادر بطلب التصويت لاختيار نائب رئيس، وحيث أن صالح منافس مُهاب الدين الوحيد على المنصب أصبح محل شك فلم يجرؤ أحد على تزكيته وخرج مُهاب الدين من الاجتماع نائباً للرئيس في الحزب ثم في الرئاسة وهيمن على السلطة بتحالفتها المتداخلة الحزبية والعشائرية وتولى رئاسة جهازيّ الأمن الوطني والمخابرات وعندما عاد صالح من رحلته كان قد فقد كل قوة له في الحزب وإن لم تذكر كذبة المؤامرة ثانية فانتهى به الحال بقبول منصب سفير بإحدى الدول الأوروبية القصية شاكراً .

بعدها مباشرة اتخذ مُهاب الدين مبنى بجوار القصر الرئاسي جمع به أفضل العقول الحزبية والمستشارين كمجلس وطني للإدارة والتنمية عهد إليه بإعداد الخطط التنموية ورسم السياسات الاقتصادية للبلاد بعيداً عن تخطيط مجلس الوزراء والنواب.

كانت أولى خطوات السيطرة على الجيش هي تصفية عشرات الضباط الحزبيين وترقية أعضاء الحزب الوحيد الذي سمح بعضويته لرجال الجيش لمناصب أعلى وإدخال مئات من أبناء الحزب الكليات العسكرية وتخريجهم سريعًا لتعويض النقص وفرض السيطرة.. وسرعان ما تمكن الرئيس من القول بثقة في اجتماعٍ واسعٍ " ليس هناك فرصة لأي شخص لا يتفق معنا أن يقفز على دبابتين ويقلب الحكومة لقد انتهت هذه الأساليب إلى غير رجعة."

كان مُهاب الدين قد وصل لقمة السلطة ولن يخرج منها على قدميه.

غَنَائِمُ الحَرْبِ

كانت الأخبار عن الجبهة الشرقية مُتضاربة.

فبينما كانت وسائل الإعلام الرسمية تقيم الأفراح وتهنىء الشعب بانتصارات جيشه على الجارة الشرقية التي يحكمها نظام ديني رجعي ومتطرف يصرُّعلى افتعال الأزمات ويرفض الاعتراف بترسيمنا للحدود ويطالب بالسيادة على إقليم هو جزء لا يتجزء من وطننا، كانتْ وسائل الإعلام الأجنبية تتحدث عن هزيمة موجعة تعرضت لها قواتنا التي فرّ أغلب ضباطها من ميدان المعركة لما حَمى الوطيس وتركوا جنودهم يتخبطون في محاولة انسحاب أقرب للفرار بينما اكتسحت قوات العدو الإقليم المتنازع عليه وسيطرت عليه تماماً في غضون بضعة أيام.

زاد في قلق الشعب أن الرئيس البكر وقتها لاذ بالصمت على غير عادته، فهو كان يخاطب الشعب مرة أو مرتين أسبوعيًا في الأحوال العادية ولا يترك موقف ذو أهمية إلا ألقى به خطاباً طويلاً ولكنه هذه المرة كان صامتاً أو تم إسكاته.

لم يطل الانتظار ولكن من ظهر على التلفاز هذه المرة كان مُهاب الدين.

الكل كان يعرف من هو علي مُهاب الدين وأنه ليس فقط نائب الرئيس وإنما قلب النظام النابض ولهذا فهم الجميع أنها كارثة حلت بالبلاد عندما ظهر على شاشة التلفاز فجأة وظل صامتاً لخمس دقائق كاملة لعلها تكون كافية لجمع أكبر قدر من الناس وشحذ انتباههم لما سُيقال.

ثم بدء مُهاب الدين يتكلم وبلهجة هادئة أقرب للحيادِ سردَ سير المعارك في الأيام القليلة الماضية بالتفصيل ولم يغفل ذكر حالات هروب الضباط والانفلات الذي حدث وأعداد الضحايا الضخمة واستسلام أعداد كبيرة من القوات للعدو بلا مقاومة.

كان يسرد تفاصيل الهزيمة ويسميها باسمها بلا مواربة أمام الجماهير المذهولة التي لم تسمع مثل ذلك الخطاب من قبل !

كان الرئيس البكر هو أكثر من لعب على وتر الطابور الخامس وزرع في عقول الناس الخوف من المؤامرات والخيانات وقال فى آخر خطاب له (إننا في الوقت الذي نواجه فيه ضغطًا متزايدًا وعدوانًا متكررًا على الجبهة الشرقية وعلى

جيشنا البطل نواجه في الوقت نفسه تحركات مشبوهة من زعانف الرتل الخامس وأعوان الامبريالية المستترين وراء شعارات أدرك الشعب حقيقتها وزيفها..إن تلك التحركات المشبوهة إنما تقوم بالواجبات التي أنيطت بها لتنفيذ دورها فى المؤامرة مستهدفة خلق الفتن والاضطرابات معتمدة على أسلوب الاغتيالات والتخريب والتحرك خلف جيشنا البطل..أننا سنضرب بيد من حديدٍ ودون رحمةٍ المتلاعبين والمستغلين والمشبوهين والرتل الخامس من أعوان الاستعمار).

فلم يجد مُهاب الدين صعوبة في الاستمرارعلى اللعب على نفس الوتر، خاصة وأن الكبرياء الوطني يجعل رواية الخيانة أقرب للتصديق من حقيقة أن الهزيمة جرت لأن جيش العدو كان أقوى وأفضل تجهيزاً وقيادة ببساطة، وهذا كان كل ما يحتاجه مُهاب الدين، الذي أمضى وعده للجماهير بأن يقطع أعناق المتآمرين قبل أن ينهى خطبته فخرجت صحف اليوم التالي وعلى صفحاتها الأولى صور لرجال كانوا ملىء السمع والأبصار ومحل احترام ومهابة مشنوقين ومقتولين بأعيرة نارية وآخرين مُقرنين في الأصفاد.

وفي ذات الليلة ظهر على التلفاز مُهاب الدين وهو يودع الرئيس البكر في المطار، كان وجه البكر محايداً ولكن زوجته لم تستطيع إخفاء فرحتها وهي تصافح مُهاب الدين بحرارة ممتنة.

خرج البكر من السلطة وانفرد بها مُهاب الدين بتفويض من قيادة الحزب ثم من البرلمان بإدارة البلاد بسلطات مطلقة حتى إزالة آثار العدوان.. كان كلا التفويضان بالإجماع ولكن البعض لم يحضروا التصويت فقد صفى مُهاب الدين كل من ظن أنه سيعترض في فورة حِمى التطهير التي قتل بها المئات بتهمة الخيانة بلا إدلة واضحة.

أطاح مُهاب الدين بالوزارة كاملة حتى وزيري الدفاع والداخلية عرض على كلاهما منصب سفير فرفض وزير الدفاع بعنف وارتفع صوته بالتهديدات ولكنه قتل بالرصاص فوراً وقبل وزير الداخلية الذي أمضى بقية سنوات عمره يأكل الكافيار ويدخن السيجار ويشكر كرم الرئيس ولا يذكره إلا بكل خير وتقدير.

أكد مُهاب الدين في حوار صحفي بعد سنوات أنه لم ينقلب على البكر قائلاً (الرئيس البكر هو صاحب فكرة أن أتولى السلطة ولست أنا.. كان قد كبر في السن وصحته تدهورت ويخشى الانقلاب عليه فى أي لحظة والوضع الداخلى حرج.. قمت بالتحرك لامتصاص الغضب الشعبي والسيطرة على الغاضبين في الجيش.. كان هذا انقاذًا

للنظام من داخله إن لم يكن حدث لكان انهار.. قد وصفني الرئيس البكر بأني الشخص الوحيد القادرعلى ضمان تماسك الحكومة والحزب وأظنني فعلت).

كان وقف أطلاق النار وإعلان الهدنة مجرد فرصة لإعادة التسليح الذي دخلت الدولتين في سباق محموم به وإن كانت الغلبة لمهاب الدين الذي تراجع فجأة عن عدائه للدول الكبرى ودخل اتفاقيات تجارية كبيرة معها ومنح شركاتها امتيازات عديدة للتنقيب عن النفط والغاز مقابل صفقات سلاح ضخمة والحماية من القرارات الدولية لحظر التسلح في المنطقة المضطربة، ولكن مُهاب الدين لم يكن متعجلاً لدخول حرب هي مصدر شرعيته.

كان هدف مُهاب الدين الأول هو ضمان وحدة جبهته الداخلية وكان سبيله إلى ذلك تجييش الحزب وتحزيب الجيش، حيث صبغ الحزب والمجتمع ككل بصبغة عسكرية اقتضتها حالة الحرب بينما حزب الجيش الذي أصبح أشبه بميليشيا حزبية في محاولته لتحويله لجيش عقائدي ليضمن ولاء ضباطه وتفانى جنوده.

كما واصل الرئيس تقوية وتوسيع شبكة من الرجال الأقوياء المنتمين لعشيرته وعائلات بلدته الذين يرتبطون ببعضهم بصلات القرابة والمصاهرة وزرعهم في كل الأماكن المؤثرة .

كان مُهاب الدين يعتقد أن العشائر أهم من الأحزاب وأقوى ويمكن السيطرة عليها بضمان ولاء قادتها بينما الأحزاب عرضة للتقلبات المستمرة.

وعندما أحس مُهاب الدين أخيراً بأنه أمتلك كل الخيوط في يده، خرق الهدنة وأعلن الحرب.

كانت خطة مُهاب الدين بسيطة، هجوم خاطف يبدء بقصف مكثف على التجمعات العسكرية للعدو وطرق امدادة ثم تندفع الاليات العسكرية والمشاه وتستعيد الاراضى المحتلة وتدفع بقوات العدو الى ما بعد حدودهم ثم يعرض وقف أطلاق النار ويدخل في مفاوضات سلام.

ولكن مهاب الدين أغفل أن على الجانب الآخر جيش عقائدي يؤمن جنوده الذين استماتوا في الدفاع عن خنادقهم أن دمائهم تفتح لهم أبواب الجنة فتحولت الحرب الخاطفة التي قدر لها أن تستمر أسبوعين لحرب استنزاف لا تظهر لها نهاية!

استمرت الحرب مستعرة بلا هدف ولا استراتيجية لربحها أو الخروج منها لسنوات خمسة ابتلعت خلالها نصف مليون قتيل من الجانبين وأموال تستعصي على الحصر دون نتيجة واضحة !

لم يكن هناك معارضة في كلتا الدولتين لتطالب بوقف هذا النزيف الجنوني ولا كان كبرياء الزعماء في الدولتين يسمح لهم بالتراجع والدول الكبرى كانت سعيدة بصفقات السلاح والامتيازات التي تحصل عليها من وراء صراعهما المستمر.

ولكن في النهاية قبل مُهاب الدين وساطة شخصيات دولية كبرى لوقف أطلاق النار والدخول في مفاوضات انتهت بإعلان إتفاقية سلام حرص كلا الطرفان على تصويرها للشعب على أنها انتصار ساحق.

خرج مُهاب الدين من هذه الحرب زعيماً، لا يعرف الشعب قائدًا سواه وتتلهف الصحف الأجنبية لنشر صورة خاصة تلك التي التقطها في الجبهة قريبًا جداً من خطوط العدو مظهرًا شجاعته وتلك التي يدخن بها السيجار الذي أصبح علامة مميزة له وأصبحَ يجري لقاءات مع الصحفيين الأجانب بلا تحفظ ويعبر عن أفكاره بوضوح كما قال في حوارٍ صحفي :

– الناس ليسوا سَواسية على الإطلاق.. هم يولدون سواسية ثم يكون منهم الأحرار الذين تتقد أنفسهم وأرواحهم بقوة الحق ويسعون للنور ولا يرضيهم إلا شرف الانتصار على الحياة وتبقى الأكثرية ذابلة الروح منتعشة الأجساد تجد متعتها في الطعام والنساء وتكديس الأموال والتباهي بالأشياء عوضًا عن نقص أرواحهم ولا يستوي الصنفان أبدًا .

هل يستوي الشهيد الذي قضى عمره مجاهدًا يسعى إلى الموت في سبيل الحق كالساعي للحياة مع ذلك الذي قضى عمره عابثًا ولاهيًا ثم زلق في الحمام فمات؟

هناك من يقضون أيامهم يتسكون في الطرقات ويلعبون الطاولة في المقاهي ويدخنون الأرجيلة وهناك من يسعون لتحقيق غاية وجودهم في هذا الحياة وتنشغل رؤوسهم دائمًا لا بالأموال والنساء ولكن بهموم الأوطان وآمال الشعوب.. وأظنني من هذا القسم الآخر .

أنا رجل دولة بمعنى الكلمة أفعل ما يجب على فعله من أجل بقاء هذه البلد ورفعتها بين الأمم سيفي دائمًا مشهر ولكن بالحق، احرصْ على مَال الدولة ولكن أجزل العطاء لمن يخدمها وينفع شعبها بقول أو بفعل.. ولا أخشى حكم

أهل الحاضرِ فأنا أعلمُ أن التاريخ سينصفني وبعد زماني بزمان سيذكرني الناس ويترحَمون عليّ وعلى أيامي والخير الجمِ الذي كانَ بها.. أمارسُ السياسة مضطرًا فهي جماع فنون الكذب والخداع والنفاق ولكني أمارس القسم الأقل نجسًا وقذارة منها.

يمكنكم اتهامي بأني دِكتاتور وجلاد ولكن التاريخ سيذكرني كصانع دولة وينصفني وأن ظلمتموني.

قُرْبَانُ الدَّمِ

كان التمثالُ البرونزيُّ العملاق المنتصب في وسط المدينة بأكبر ميادينها شامخاً دليلٌ على انتصار الرئيس الساحق وقفتُ أتأمله بعض الوقت وعندما خفضت عينى من على وجهه وجدت المارة ينظرون إليّ بدهشة عارمة ولِسان حَالهم يقول كيف أجرؤ على التحديق في وجه الرئيس !

كانت هذه مَدينة متمردة حملت السلاح ضد مُهاب الدين منذ عشرين عاماً.

كانت مدينة أداريا أو الحرة كمَا أسماها مُهاب الدين بعد انتصاره على تمردها المسلح، عاصمة إقليمها ولها وضع متميز حيث أنها مَعقل حزب الدعوة الإسلامي الذي خاض تجربة الكفاح المسلح ضد الاستعمار قبل الاستقلال ثم تجربة الحرب الأهلية مع نظام مُهاب الدين وحزبه القومي الاشتراكي بعده.

وبدأ الصدام عندما اندلعتْ التظاهرات اعتراضًا على اعتقال الشيخ حسّان وصحبه من قادة الجماعة المعروفين وأبناء العشائر والعائلات الكبرى في المدينة وضواحيها في الوقت ذاته بدأت التظاهرات سلمية ولكن سرعان ما تحولت للعنف عندما فتح رجال الشرطة النارعلى مظاهرة أمام أحد مراكز الشرطة فأسقطت ثلاثة شهداء.

وفي اليوم الثاني مباشرة توجهتْ الحشودُ الغاضبةُ بعد الانتهاء من مراسم دفن الشهداء إلى مركز الشرطة الذي قُتلوا أمامه ودَارت معركة دموية انتهتْ بمقتلِ ١١ جنديّ وضابط وعدد كبير من الحشد الغاضب وسرعان ما امتدت شرارة العنف إلى سائر انحاء المدينة التى فرت منها قوات الشرطة سريعا مخلفين ورائهم بضع عشرات من القتلى والسيارات والمباني المحروقة ولحقهم موظفي الدولة التي أغلقت مكاتبها ومبانيها في المدينة التي أعلنت في حالة تمرد ليبدأ الحصار ومن بعده المذبحة.

نهشت نيران المدفعية والطيران والدبابات المدينة حتى سوت العديد من أحيائها بالأرض قبل أن تقتحمها قوات التدخل السريع بيت بعد بيت وتدور بها رحى مذبحة بشعة قتل بها الآلاف واعتقلَ الآلاف غيرهم في معسكرات الاعتقال التي أقيمت خارجها .

عندما حطت رحالي بالمدينة لم يعد هناك من آثار للدمار الهائل الذي أوقعته يد مُهاب الدين الغاضبة ولكن بقي شهود المأساة الذين التقيت أحدهم على شروطه ألا يذكرُ اسمه ولا أي شيء يمكن الاستدلال به على شخصيته ليحكي قصته ويروي شهادته.

منذ ٢٠ عام لم أكن سمين أعرج كما تراني، ولكني كنت شاب رياضي شديد التأنق وممتلىء بحب الحياة وطموحي أن اكون لاعب كرة محترف وألعب مع المنتخب الوطني وأصبح نجمًا من نجومه الذين تغدق عليهم الدولة والناس المال والاحترام والحب.

لم أكن عضوًا في جماعة حزب الدعوة التي غرست جذورها في المدينة وضواحيها لعقود ولكن الكثير من أهلي وأصدقائي كانوا.. لا أعرف تحديدًا ما الذي حدث وأشعلها حربًا ربما وتيرة الاعتقالات التي زادت فجأة فطالت كافة قيادات الجماعة العليا وبقت القيادات الوسيطة التي رفعت السلاح وأعلنت التمرد وأعطت النظام ما كان يرغب منها بالضبط وربما كان هناك خيانة كما تردد لاحقاً! أن مُخابرات الرئيس اخترقت الجماعة ودفعت بها إلى التهلكة.

يبدو مشهد عشرات الشباب كثي اللِّحى غاضبين ومسلحين وهم يصرخون ملوحين بالبنادق الآلية والسيوف والبلط متوعدين منتسبي الحكومة بالذبح كالخراف مخيفًا للغاية، يدفع مشاهدي التلفاز لموافقة الحكومة على أي اجراء مهما كان موغلاً في التطرف ضدهم.

ولكن نزق الشباب وحماسهم لا يكفى لجعلهم يصمدون ساعة في مواجهه مع قوة عسكرية منظمة مدعومة بالأليات والمدفعية والقاذفات والمروحيات، فضلاً عن قوة التدخل السريع التي لم نكن سمعنا عنها من قبل والتي كانت اعدت لهذا اليوم تحديد وحصريًا، فعناصرها انتقت من أشد العناصر قسوة و فساد ومن أكثر البيئات فقرًا من المحافظات الحدودية البعيدة، ومن الأقليات الطائفية وتلقى منتسبوها تدريبًا على أعلى مستوى بأشرف خبراء عسكرين أجانب أعدوهم لحرب المدن و ذبح المدنيين بلا رحمة وتم عزلهم وتميزهم عن كافة القوى العسكرية و الأمنية الاخري و دفعت لهم رواتب ضخمة وميزات عديدة ..وحوش سمنها الرئيس لتأكل أعداءه عند اللزوم وقد كان .

سُرعان ما حاصر الجيش المدينة ولكن لم تدخلها قواته حتى جائت قوات التدخل السريع بملابسها السوداء والأقنعة على وجوه جنودها الذين وقف ضباطها بعيد حتى وردت الأوامر لقادة قوات الجيش أن يطيعوا قيادات التدخل السريع طاعة مطلقة أثناء العملية.

يقولون إن صراع قوى ما بين الجيش والرئيس كان حاضراً ولم يكن كافة الضباط على قلب رجل واحد متوافقين مع سياسة مُهاب الدين ولكن لم يستطيع أي أحد في الجيش أن يعترض على العملية في ظل هذا الوضع الخطر فارتضوا أن يكونوا أدوات تحت يد ابن عمه سليمان قائد قوات التدخل السريع والذي لم يكن يترك جهاز اللاسلكي من يديه أبدًا ويبلغ ابن عمه بكل كبيرة وصغيرة فورًا ليكون كل ما يحدث تحت نظر مُهاب الدين وتنفيذا لأوامره.

ربما كانت قيادات الجيش تعلم أن اشتراكها في المذبحة سيفقدها أي قدرة على التصدى للرئيس لاحقًا ويفقدهم أي ثقة للشعب بهم ولكنهم اختاروا أن يكونوا أدوات الرئيس ربما لقناعتهم أن محاولة التصدي له انتحارية ولن تفهم إلا باعتبارها انحيازاً للجماعة التي أعلنها إرهابية، ليخرج الرئيس من هذه المذبحة ملطخًا بالدماء ولكنه أقوى مما كان.

استمرت المذبحة لسبع ليال بدأت بقطع الكهرباء والمياه والتليفونات عن المدينة المحاصرة ثم اقتحمت قوات التدخل السريع كل بيت لم تهدمه قصف المدفعية والدبابات والمروحيات العشوائي الذي لم ينقطع لحظة..قبض على المئات وأعدموا ميدانيًا وأخذ المئات ولم يظهروا أبدًا، اغتُصبت مئات النساء ونُهبت البيوت والمتاجرأحرِقت، حتى مَباني الحكومة نُهبت..ثم تجاوزَ الأمر إلى الإبادة التامة كان القتل بلا توقف والسكين لا تشبع لا أحد يعرف كم قتل من أهل المدينة ربما عشرين أو ثلاثين ألف ولكن عائلات كاملة اختفت والباقية كلها أصِيبت في أحد أبنائها .

المقصود كان ذبح المدينة من الوريد إلى الوريد.. جعلها مَضرب للأمثال ودليل صارخ على أن لا أحد يمكنه الوقوف أمام دولة الرئيس الذي أراد أن يلطخ الجميع بدماء المذبحة فالتلفزيون والراديو والصحف كلها تلقت أوامر واضحة لا لبس فيها.. من لا يؤيد ويحرض على ذبح المدينة هو أحد داعميها وسيعامل معاملة الأعداء وتلوث الجيش بدماء الشعب فلم يعد بعيدًا عن جرائم السلطة ولا يستطيع الإدعاء أنه ليس مجرد سيف من ضمن سيوف الرئيس .

كانت المدينة تذبح ولا أحد يتكلم.. تتوقع أن ينتفض المجتمع الدولي أو الإقليمي عندما تصله أخبار مذابح تجري في أحد البلدان ولكن مع قوة التعتيم ومنع الصحافة من الاقتراب لم تخرج أخبار المذابح إلا متاخرًا بعد وقوعها بايام

فكانت أخبار قديمة لا تستحق الكثير من الإلتفات.. الصحافة تريد الطازج دائمًا ودمائنا كانت متجلطة ليست بالدفء الكافي لتنال الاهتمام.

كما أن الدول لا تتحرك إلا طمعًا في مصلحتها أو تحت ضغط ما وحتى الدول المعادية لم تجد ما تفعله إلا الاستنكار وكيلِ السِّباب للنظام المجرم الذي تعاديه لأنه غير أخلاقي وليس بسبب خلافات الحدود والنفط بزعمهم..والحقيقة أن أغلب العداء بين الرئيس والدول المجاورة ومن أسماهم الإمبريالية العالمية كان عداء في سياق الدراما..يدعي مُعادتهم ليجد تبرير لسياسته القمعية ولكنة يحافظ دائمًا على شعرة معاوية معهم ويغفرون مسبتهم في خطبه النارية وحركاته الاستعراضية ما دام يعوضهم عن ذلك بصفقات اقتصادية وسياسية سمينة في الخفاء.

الغرب كان يعرف ما يحدث ويباركه.. لا أحد يريد خوميني جديد هنا وإن كانت إدانة العنف والقسوة ضرورية للحفاظ على سمعتهم كحماة للحرية وحقوق الإنسان فلابد أن تكون بدرجة مخففة حتى لا توهم الحاكم أن هناك اجراء ما سيتخذ ضده.. كان الرئيس يعرف أن تهديدات الغرب وتنديداته كلام أجوف بلا معنى واستغله ليربط بين الأصوليين والغرب وكأنهم عملائه.. وإلى الآن هناك من يعتقد بعمق أن الأصولية صنيعة غربية وليست تطورطبيعي للأفكار الدينية التي سادت بلادنا قرون .

وعندما أنتهت المعركة أخيراً جمع الناس في الميادين المهدمة تحت تهديد السلاح والسياط كأسرى حرب ليقوموا بتظاهرات حاشدة وهم ينزفون والتراب يغطيهم يهتفون فيها باسم الرئيس وشعارات الحزب وسباب الإسلاميين والشيوعيين وأعداء الوطن من الجواسيس والخونة والعملاء!

لم أكن قد شاركتُ في أيةِ تظاهرات ولا كنت مهتماً بالسياسة مطلقاً ولزمت منزلي طيلة فترة العملية العسكرية ولكن سوء حظي أدى لاعتقالي في أول يوم خرجت من المنزل، لا أدري ما الذي جعلهم يظنون أنني أتسترُ على بعض الهاربين من شباب حارتنا فاعتقلوني من الشارع وضُربت ضرباً مبرحاً عندما حاولت التوسل لهم ليتركوني قبل أن يلقوا بي في سيارة مغلقة ومنها إلى مركز تحقيق.

كانت اللطمات في التحقيق أكثر من الكلمات وهم يسألوني " متى انضممتُ للتنظيم الإرهابي ومن قادتي به" وحيث أنني لا أعرف شيء ولا حتى أستطيع الكذب فأقول فلان أو علان لأني لا أعرفهم صدقًا كان عذابي شديد .

وبعد الصفعات واللكمات والضرب بالهروات في المكتب أخذت لقبو تعذيب صُلبت فيه وكويت بالنار ولم ينقذني من الموت على أيدهم إلا كثرة المعذبين فتركت لأفسح مكان لغيري ونقلت إلى السجن مع مئات من أبناء المدينة المنكوبة جلهم كانوا في مثل حالي لا يعرفون شيئاً ولا يصدقون ما يحدث لهم.

كانت قدمي قد كسرت كسراً بسيطاً أثناء اعتقالي ولكن انعدام الرعاية الطبية حول الكسر البسيط إلى عاهة مستديمة.

كان المعتقل كابوساً مخيفاً..

ذاكرتي عن تلك الفترة مشوشة من كثرة ما تعرضت فيها إلى الضرب، جلد وتعليق ورفس بالأحذية بلا أسباب.. تتوقع أن تتعرض للتعذيب في فترة التحقيق لانتزاع معلومات ولكن في السجن وأنتَ بين ايديهم لماذا؟

كان التعذيب يومي وغيرعقلاني يحمل من يقومون به حقداً لا نهائي ضدنا، في الأيام الأولى امتنعَ أحد الشيوخ عن القول بأنه كلب وضرب أمام أعيننا ورُفس بالاحذية حتى فاضت روحه أمام السجناء الذين نبحوا كل يوم من بعد ذلك، كان شيوخ الجماعة ومن يشتبه أنه منهم الأكثر عرضة للإذلال بيننا فكانوا يأتوا بالشيخ ويضربونه حتى تكاد روحه تزهق أمامنا وهم يطلبون منه أن يدعو الله أن ينجيه ثم يقولون لو كنت حقًا من أهل الله وعلى الحق لأنجاك ولكنك منافق من أهل النار!

وأكثر ما كان يخيفنا في المعتقل هو الليل..فعندما تغرب الشمس تصعد المخاوف إلى عقولنا ويسكن الرعب القلوب فكثيرًا ما كانوا يسحبون أحدنا فتملاء الزنانين الصراخات الوحشية للمعذبين ونرتجف وقد ملئنا الرعب من أن نكون التاليين، وازدحام السجناء في العنابر وانعدام النظافة والطعام الآدمي نشر بيننا الإصابات بالجرب والسُّل والأمراض العديدة فحتى الليالي التي خلت من التعذيب كثيرًا ما كانتْ تداهمُ المرضى والأقل تحملاً منا أزمات صحية قاتلة فليفظون أنفاسهم الأخيرة وسطنا دون أن نملك شيء لتخفيف آلامهم حتى الصباح حيث تسحب جثثهم من بيننا.

اشفقت عليه من الرجفة التي تهز كامل جسده وارتعاش صوته المتهدج وعيناه الزائغتين وأشباح الماضي تقفز أمامها.. لم أكن راغباً في تعذيب محدثي فقررت أن أكون رحيمًا وطلبت منه فترة راحة لشرب الشاي قبل أن نكمل حوارنا.

عندما عادت أنفاسه إليه وهدئت أعصابه أكمل الحكي بهدوء:

بعد بضعة شهور صدر أمر بنقلي ومجموعة أخرى إلى سجن عادي وكان هذا أسعد حدث في حياتي !

ففي السجن أصبح بامكاننا استعمال دورات المياه لمدة ١٥ دقيقة يوميًا وأن نطلب الذهاب لعيادة الطبيب وحصلنا على ملابس السجن الزرقاء النظيفة وطعام يملىء بطوننا وبدأنا نتذكر أننا آدميون ولنا حقوق، حتى إن أحد كبار السن تجرأ ذات يوم وسأل أحد الضباط: لا نعرف أي شيء عما يحدث بالبلاد خارج السجن هل يمكن أن يسمح لنا ببعض الجرائد اليومية؟ فكان رد الضابط سنرى، هكذا بهدوء وبدون سخرية وبالفعل بعدها بأيام سمح بدخول الصحف الرسمية اليومية للسجن.

وبعد شهور أخرى حكم ببرائتي وخرجت من السجن ولكني خرجت شخصاً أخر حتى أمي لم تتعرف عليّ عندما رأتني لأول مرة، كانت رؤيتي للعالم اختلفت والعالم أيضًا من حولى اختلف كثيراً.

لم يعد طموحي أن أصبح لاعب كرة مشهور بغض النظر أنني لم أعد أستطيع، ولكن فهم العالم والإجابة عن الأسئلة التي أكلت روحي في السجن أصبح هدفي الذي لم يشغل قلبي عنه الانهماك بمحاولة العودة للحياة الطبيعية ومداواة جروح السجن العميقة وأن ابدأ مشروعاً تجارياً أتكسبُ منه وأتزوج وألا أنتفض من نومي مفزوعاً كل ليلة وأن أتحدث مع الناس دون خوف من أن يلطمني أحدهم.

عندما خرجت من السجن وجدت الريبة قد سادت العلاقات بين الناس فقد كان حتمًا على كل فرد أن يسارع بإبلاغ السلطات عن أي سلوك غير ملائم لمبادىء الثورة وإلا فهو معرض للاتهام بالتستر والتآمر فتحول الجميع إلى مخبرين سريين سواء من لائمه ذلك العمل القذر ومن دفعه إليه الخوف..فكل من يقبض عليه ويتهم بأنه عَميل مُحرض يشعل حريق تلتهم ناره كل من في دائرة علاقاته من أصدقاء وزملاء عمل وجيران فكلهم أصبحوا في دائرة الإتهام وعليهم اثبات برائتهم وجهلهم بطبيعة أفكاره الهدامة كتبرير وحيد لعدم إبلاغهم السلطات عنه وإلا فهم شركائه .

سجن ناجح للغاية هذه الذي يكون كل فرد فيه رقيبًا على زميله وعلى نفسه يخشى السقوط في المحظور حتى وإن كانت قائمة المحظور غامضة وطويلة حد العبثية.

وربما هذا الذي دفعنى لدراسة علم النفس وان لم أمارس المهنة ابداً..فبدلا من أن اسقط في هوة ادمان المخدرات او أغرف من متع الدنيا لتعويض ما حدث لي ومحاولة نسيانه كما فعل كثيرين ممن تعرضوا لتجربتي اهتممتُ لسنوات

بالقراءة والاطلاع حول التجارب السياسية المختلفة في شتى دول العالم ووجدت أن دولة القمع تنتصر عندما يصبح كل مواطن جاسوسًا ليس فقط على زميله وإنما على نفسه..عندما تضرب بقوة غاشمة عمياء يملىء الناس الهلع والرعب من مصائر مخيفة في قبور مجهولة وغرف معتمة تخاف أن تكلمت بكلمة تفهم بمحمل سىء أن تفقد وظيفتك أو حريتك أو عائلتك أو حياتك مقابلها، فتدريجيًا تصبح رقيبًا على نفسك تتحاشى أن تتكلم في مواضيع حساسة أو أن تبد اهتمام بما لا ينبغي عليك الاهتمام به وإن وجدت أحد زملائك أو أفراد عائلتك يتساهل مع نفسه تهرع لتأديبه بغضب لأنه شخص مستهتر غير مسئول يعرض نفسه والآخرين للخطر الجسيم بلا مبرر.

يعتاد الناس الوحشية كجزء من حياتهم اليومية..في دولة متقدمة خبر مقتل شخص تحت التعذيب في أحد السجون أمر جلل يسقط حكومات ويخرج الملايين في مظاهرات حاشدة في الشوارع ويهوى له مؤشر البورصة ويترنح الاقتصاد..ولكن إن قتل كل يوم عشرة تحت التعذيب فالأمر سيتحول إلى طبيعي لا يستحق الالتفات، لا تكتب الجرائد لأنه لا جديد في الأمر حكومة تقتل معارضيها بالتعذيب قتلت بعضهم كما تفعل كل يوم فلا جديد يستحق الذكر، ويعتاد الناس ويسقط من أذهانهم فظاعة الأمر ويستقر في وجدانهم أنهم يمكن أن يكونوا الضحايا التاليين ببساطة لأن ذلك طبيعي كما نتقبل احتمالية أن تدهسنا سيارة مسرعة مثل الالاف الذين يلقوا حتفهم على الطرق السريعة كل عام.

- فماذا عن الجلادين؟ كيف يستطيعون اقتراف كل تلك البشاعات؟

- الجلاد يجد الكثير من الأعذار لينام قرير العين، إنه أداة الانتقام الإلهية، إنه يعمل لصالح الوطن والخير العام، إن من يعذبهم ليسوا ضحايا وإنما مجرمين يستحقون العقاب أو إنه فقط ينفذ الأوامر .

وقد يظهر لك أن الجلادين صنف نادر أقرب للوحوش منه للبشر يجب اكتشافهم وتدريبهم على قسوة القلب وتنفيذ الأوامر مهما كانت وحشية بلا وازعٍ من ضمير ولكن الحقيقة أن هذا الصنف سهل الوصول إليه جدًا أو تحويل أناس عاديين اليه.

في الحروب يظهر هذا بقوة فعلى سبيل المثال في عام ١٩٤٢ طلب من كتيبة شرطة احتياط ألمانية مكونة من أرباب أسر متوسطي العمر أن يقتلوا كافة سكان قرية صغيرة ببولونيا..هكذا بلا أسباب ولا مبررات ورغم أن قائدهم منح

من يريد الانسحاب حق التراجع دون عواقب إلا أنه من ضمن ٥٠٠ رجل لم ينسحب ويرفض الاشتراك في المذبحة إلا أثني عشر رجل فقط، بينما انخرط بقية الخمسمائة رجل في المذبحة من الصباح إلى المساء حتى غمرتهم دماء ألف وثمانمائة رجل وامرأة وطفل وشيخ من سكان تلك القرية المنكوبة ذبحوهم بدمٍ باردٍ تنفيذًا للأوامر بلا سابق عداء ولا مبرر عقلاني..هؤلاء لم يكونوا من كتائب الصاعقة أو قوات الجيش المدربة بل رجال عاديون موظفون وعمال مثل هؤلاء الذين قتلوا واغتصبوا جيرانهم في البوسنة وفي رواند وكامبوديا وفي كل موضع من الأرض ضحك فيه الشيطان.

أبديت أعتراضي قائلاً :

– ولكن هؤلاء تعرضوا إلى عملية غسيل مخ كثيفة نشطت ذلك الجانب الوحشي منهم وكان يقودهم محرضين بأدوات دعائية قوية حتى يمكن أن نقول إنهم سلبوهم إرادتهم الحرة.

– نعم لا أنكر وكذلك لا ننكر طبيعة الإنسان التى تجعل يستمتع بلعب دور الطاغية وممارسة العنف..الناس لديهم قدر هائل من القسوة قدر لا يمكنك تصوره رغم حضوره الدائم..فقط عليك أن توفر الظروف الملائمة فهؤلاء الذين عانوا من البطالة طويلاً لا يجدون غضاضة في أي خطة توفر لهم العمل على حساب إلغاء غيرهم بفصل تعسفي للآلاف على أسس طائفية أو أيدولوجية أو حتى قتلهم جماعيًا عندما يكون الإنسان مهدد بالجوع أو آلام العنف يرتد إلى البدائية فيكون أقرب للوحش على استعداد لسحق عظام كل من يراهُ عدوًا..ووجود الإنسان في مجتمع قائم على القسوة والعنف ينمي هذه الرغبات السفلية ويحض عليها فلا تكون ممقوتة كحالها في المجتمعات الطبيعية، فالمهمش الفقير ينال الكثير أن تحول إلى جلاد وخرج من دائرة الضحية المحتمل فيكون من يمارس العنف بدلاً من أن يكون ضحيته .

هذا ما يحدث في كافة الأنظمة القمعية التى تقوم بتوحيش شعوبها وتجعل الوسيلة الوحيدة لخروجهم من دائرة القمع هو أن يصبحوا جزء من آلة القمع ذاتها.. كما اليهود وجدوا في الصهيونية خلاصهم وتحولوا من مقموعين لقامعين ومن ضحايا لسفاحين.

فقبل قتل الناس جسديًا بمذبحة يجب ارتكاب مذبحة أخرى يقتل فيها الناس ثقافيًا وعقليًا فيتحولوا إلى جثث تحركها إرادة الدولة بلا وازعٍ من ضمير أو أراء شخصية.

كانت المهمة الأولى هي جعل الصَّواب والخطأ الأخلاقيين ترديد لما تقرره اللجنة العليا للحزب لا الدين ولا الفلسفة ولا حتى الفطرة السوية كانت الغاية قتل الفردية وتحويل الانسان إلى جزء من مجموع كبير، ثم زرع فكرة المؤامرة في أذهن الناس واللعب على عواطفهم وتحريضهم حتى يكونوا على استعداد للفتك بكل من تشير إليه وتقول هذا عدو الوطن.

والأمر لا يحتاج لمواصفات خاصة ليصبح الشخص جلادًا.. الأطباء مثلا كثيرًا منهم ينخرط في عمليات التعذيب والإشراف عليها ببساطة تامة.

معسكرات هتلر للإبادة الجماعية كان يشرف عليها أطباء وأغلب من يقتلون في السجون والمعتقلات تخلوا تقاريرهم الطبية من أثر أي تعذيب وكلهم يموتون لأسباب طبيعية عادة بهبوط في الدورة الدموية، والكثير من برامج التعذيب الممنهجة في دول العالم وضعها أطباء نفسيين يوصفون في مجالهم بالعلماء ويحتجزون في المصحات المعارضين السياسيين ويجرون عليهم التجارب لتحويلهم إلى أجهزة كاسيت تنطق بما وضع بها فقط.

كما أن الناس تطيع السلطة مهما كانت غير معقولة، وقد أجريت تجارب متعددة أثبتت هذا فقام الأميركي ميلجرام بتجربة في الخمسينات حيث قام باستقطاب عدد من الاشخاص عبر إعلان وجعلهم يدخلون تجربة يصعقون فيها آخرين بالكهرباء إن اخطأوا في الإجابة عن سؤال..وعبر التجربة كان الناس يَصعقون الآخرين في غرفة أخرى يسمعونهم ولكن لا يرونهم وهم يتألمون ويصرخون ويطلبون منهم التوقف بينما ترتفع شدة التيار الكهربي في كل مرة يجيبون سؤال خطأ..فكم تظن نسبة الذين استمروا في تعذيب الاخرين بلا سبب حتى الحد الأقصى لشدة التيار الكهربي التي قد تكون صعقاته قاتلة؟

ثلاثة وستون بالمائة قاموا بالاستمرار حتى النهاية ولم يبالوا بصرخات الناس الذين كانوا يظنون أنهم يسببونها بصعقاتهم ولا طلب أحد منهم التوقف والاطمئنان على صحة من في الغرفة الأخرى!

وفى السبعينات قام العالم زيمباردو بتجربة أخرى وضع فيها مجموعة من أبناء الجامعات المرموقة في مكان مغلق يشبه السجن وجعل بعضهم يؤدى دور السجانين والآخرين السجناء.. وقبل أن توقف التجربة كان السجانون بدأوا في تعذيب المسجونين وإرغامهم على النوم عراة على الأرض وحرموهم من الطعام وعرضوهم للضرب والإذلال !

هل تعجبت من تلك الميول السادية التي ظهرت فجأة عند الطلاب الجامعيين المثقفين؟

ولكن ما يثير العجب أكثر أن زملائهم المسجونين لم يتوقفوا عن لعب دورهم وتحملوا الإهانة والتعذيب والحط من الكرامة بينما كان يمكنهم ببساطة شديدة أن يتوقفوا عن التجربة بلا عواقب فهم ليسوا مساجين حقًا ولا يقضون عقوبة ما!

لم أحب أن أناقشه في مدى دقة هذه التجارب وتقييم نتائجها فلست متخصصاً على أي حال ولكن أحببت أن أستزيدَ منه فطرحت سؤال جديد :

– ولماذا التعذيب؟ قاسمٌ مشتركٌ بين كثيرين ممن قابلتهم أنهم تعرضوا للتعذيب بلا أسباب واضحة في كثير من الاحيان فما الغاية وراء ذلك؟ هل لاستخراج معلومات وتنشيط ذاكرة الضحية بإعادة معلومات قد كان نسيها إلى واجهة الذاكرة مرة أخرى؟

– لا في أغلب الأحيان لا يتم التعذيب لاستخراج معلومات.. في كثير من الأحيان يكون غرض التعذيب هو كسر الإرادة وتحييد الشخص موضوع التعذيب الذي لن يعود لممارسة السياسة أو حقه في الاعتراض ثانية خشية تكرار الكرة وتعرضه وذويه لهذا الألم ثانية.

وفي أحيان أخرى رأيتها بنفسي لا يكون التعذيب غرض إلا متعة من يقوم به، فهذا السجين شخص يدعى أنه هنا لأنه أفضل أخلاقيًا وصاحب رؤية وشجاعة ليعبر عما في قلبه ولا يداهن السلطة التي يعلم بقوة بطشها وهذا يستفز أذناب السلطة ومعذبين الناس الذين يعلمون في قرارة أنفسهم مدى حقارتهم ووضاعتهم وهم يستأسدون على مأسورين في حالة ضعف فيكون في تعذيبهم انتقام ومتعه مريضة لهؤلاء.

وأحياناً يكون التعذيب مجرد روتين! ماكينة القمع تحتاج لزيت جديد أو بالأحرى دماء جديدة لتظل تعمل بكفاءة فيرحل جلادون ويأتي غيرهم ويرحل ضحايا ويأتي غيرهم وتختلف القضايا وتبقي الماكينة تعمل بكفاءة.

لكن غاية التعذيب الأولى هي كسر الضحية ومحو احترامه لذاته وامتهان انسانيتة وكرامته، فيصبح فارغ مجرد من المعنى معدوم الإرادة يفعل ما يأمر به بلا تفكير.. لهذا بشاعة وإجرامية الوسائل ضرورة.. يجب أن يعرف الضحية أنه لا

يملك من أمر نفسه شيء ويكون أقصى طموحه وآماله أن يخرج من هذا الجحيم فينسى كل ما كان يحلم به وكل ما كان يفكر به وينحصرعقله على الرغبة الفطرية البدائية في البقاء .

وعندما يخرج الضحية تملئه الرغبة في الانعزال والبعد عن الآخرين ممتلىء بندبات في نفسه صعبة البرء منها لا يريد ألا أن يلعق جراحه في هدوء ويتحاشى الناس ويرى المجتمع الذي كان يحلم بتغييره إلى الأفضل متواطىء في سحق آدميته فلم يمد إليه أحد يدًا ولا ساعده أحد في ليالِ العذاب بل ساعدَ الجميع السلطة بالصمت والخنوع والتجاهل للإجرام الذي يحدث .

يحول التعذيب المقاتلين من أجل المجتمع إلى أعداءه فيحيدهم ويفقدهم فاعليتهم فإن لجيء الضحية إلى الرد على العنف بالعنف فهو متطرف يعطى السلطة مبررًا واضحًا للقسوة وقمع المعارضين ويحسن صورتها أمام العالم فهي تحارب التطرف الذي يضرب الجميع ويعادي الجميع والناس لا تستمع إلى المتطرفين ولا تنساق إلى آرائهم ولا تأنس بهم فهم أيضًا وحوش ولكنهم خارج السلطة فلا يملكون نفعهم بل ايذائهم فقط!

سألت متحيراً:

- وهل لهذه الدائرة الجهنمية من نهاية؟

شرد قليلاً قبل أن يرد:

- هناك جيل جديد الآن.. شباب لديهم رؤية مختلفة للامور ولديهم الحق في أن يكتبوا تجاربهم الخاصة ويحددوا مصيرهم لا أن يستمروا في خوض معارك لم يبدأوها.. ربما يكسرون دائرة العنف والانتقام ويبدأون مجتمع جديد لا يقدس لغة الدم.. حقهم أن يحلمون بوطن أفضل وواجبهم أن يحاولوا صنعه وأتمنى لهم النجاح.

جلست على مقهى قديم أرتب أوراقي وأرتشفُ القهوة في هدوءٍ مستمتعًا بنسمات العصر الهادئة المختلطة بروائح البلدة القديمة التي لا توصف إلا برائحة الحنين.. ولكن فجأة شعرت بغصَّة وأن هناك أمر ما غير طبيعي في الأجواء التفت خلفي فجأة لأصطدم بنظرته الجليدية.. أعرف هذه الوجوه وتلك النظرات.. أعرف الذئب عندما أراه.

انكشفَ أمري لا ريب، قد مات الرئيس ولكن الغول لم يمت وأنني الآن كما كنت طوال رحلتي في كف يده.

بقي لي حوار واحد أرجو أن أتمكن من إجراءه .

السَّامِرَّائِي

لا يمكننا أن ندع الأب والأم يسيطران على البيت بالتخلف والأفكار الرجعية يجب أن نجعل الصغير يشع في البيت لطرد التخلف لأن بعض الآباء قد أفلتوا منا لأسباب وعوامل كثيرة ولكن الابن الصغير مازال بين أيدينا ويجب أن نحوله لمركز إشعاع فعَّال داخل العَائلة طوال الساعات التي يمضيها في البيت بينهم لتغييرهم إلى الافضل – وحدة العائلة لا يجب أن تقوم على أساس مفاهيم التخلف وانما تقوم وتقوى على أساس الانسجام مع السياقات المركزية لسياسيات وتقاليد الثورة في بناء مجتمع جديد .

عليكم بتطويق الكبار عن طريق أبنائهم بالإضافة إلى الروافد والوسائل الأخرى، علموا الطالب أن يعترض على والديه إذا سمعهما يتحدثان عن أسرار الدولة وأن ينبههما إلى أن هذا خطأ، علموهم أن يوجهوا النقد إلى آبائهم وأمهاتهم بالاحترام الواجب طبعًا إذا سمعوهم يتحدثون عن أسرار تنظيمهم الحزبي.

عليكم أن تضعوا في كل بيت ابنًا للثورة وعينًا أمينة وعقلاً سديدًا يتلقى تعليماته من مراكز الثورة المسئولة.. علموه أن يعترض على والديه أن وجدهما يفرطان في أموال الدولة وعلموه أن يحذر من الأجنبي ولا يأمن جانبه وأن ينبه الآخرين أن لا يتحدثوا إلى الأجانب.. الطفل بين أيديكم أيها السادة المعلمين كقطعةِ مرمرٍ بكرٍ بيد نحات يمتلك القدرة على اعطائها الشكل الجميل المطلوب وهذا ما نطلب منكم فعله.

هل تعلمون من هم أولى الناس باهتمامنا؟

هؤلاء الصبية بين الحادية عشر والسادسة عشر، هؤلاء هم مستقبل بلادنا أن لم نملأ عقولهم ونحسن تنظيمهم ونضمن ولائهم وسلامة عقولهم في هذا الفترة سبقنا إليهم المخدرات والمتطرفين فملأوا عقولهم واوقاتهم .

أتعرفون أن هذا هو السن الأمثل للتجنيد عندَ الجماعاتِ الدينية المتطرفة؟

يلتف نقبائهم على الصبيان الذين خرجوا بالكاد من أحضان امهاتهم يبحثون عن قيم يلتزمونها ويتلمسون طريقهم في الحياة فيلبسون لهم جلد الضأن ويقدمون لهم الصُّحبة الطيبة والعمل الخيري النافع الذي يشعرهم بقيمتهم ويربطونهم بشيوخهم وكأنهم عائلتهم وفجأة نجد أنفسنا أمام طائفة جديدة يقاتلون دفاعاً عن أفرادها وعلاقتهم التي

صارت كالدم.. ولا تنقطع تلك الرابطة ولا تنتهي من ذلك الخطر السرطاني إلا بسفك دماء أبنائنا.. ولماذا يحدث هذا؟ لأن الدولة لا تقوم بدورها في حماية أذهنِ أبناءَ الوطن .

المدارس، الصحف، التلفاز، الراديو، وحتى المساجد والكنائس يجب أن تكون جميعًا أدوات لنشر الوعي القومي وقيم الحزب ومبادئه ولا نترك أذهن الشبيبة لقوى الرجعية أو العُملاء أبدًا.. تلك هي المعركة الأهم.

هكذا تكلم علي مُهاب الدين في خطاب بوزارة التعليم والإرشاد حيث عبرّ للمعلمين عما يدور برأسه ولكن لم يكن أساتذة المدارس الابتدائية هم سلاحه في تحقيق غايته بزرع الحزب في كل عقل وإنما كان سلاحه الأمضى رجل واحد هو من اتجهت للقاءه.

مساحة كبيرة قطعتها سيارتي بعد مروري من بوابة المزرعة حيث يقضى عليّ السامرائيّ أيام تقاعده في قصر ريفي كبير محاط بدزينة من الخدم وأخرى من الحرس المدججين بالسلاح وثلاث من كلاب الحراسة من سلالات "جيرمان شيبرد" و "بول ماستيف."

اشتهر عليّ السامرائيّ بأنه رجل الدولة الثقافي حيث أستأثر بمنصب الأمين الثقافي للحزب لسنوات طويلة تعاقب فيها وزراء الثقافة والإعلام بينما ظل هو في مكانة راسخاً يتحكم في مستقبل البلاد من طرف خفي بتحكمه فيما يصب بعقول أبنائها من علوم ومعارف سواء في المدارس أو المكتبات أو الندوات أو الراديو والتلفاز وكافة وسائل الاعلام.

بمجرد أن دلفت للقصر الممتلىء بالفخامة ويدل كل شبر فيه على ذوق رفيع، استقبلنى خادم أربعيني مهذب اصطحبنى إلى غرفة انتظار دافئة ومريحة ودلني على الحمام الملحق بها لأزيلَ ما علق بي من تراب السفر وعندما خرجت وجدت عصير البرتقال الطازج وأطباق الفاكهة والأجبان المتنوعة والمكسرات في انتظاري الذي لم يطل قبل أن يصطحبني لمكتب الأستاذ.

مكتب الأستاذ كان عبارة عن مكتبة ضخمة أظنها أكبر مكتبة شخصية رأيتها في حياتي تنتهي بمكتب صغير مخصص للقراءة والتدوين وبجواره ركن للضيوف حيث استقبلنى السامرائيّ بابتسامة مرحبة وفنجان قهوة مميزة وسيجار كوبي فاخر قبل أن نبدأ حوارنا.

وبينما كنت أستعد لطرح أسئلتي وأبحث عن مدخل ملائم لبداية الحوار فاجئني بالقول "دعني أقترح عليك السؤال الأول.. ماذا حدث لوجهي؟ فمن الواضح عليك أنك لا تعلم.

كان السامرائيّ مشوهاً بالمعنى الواضح للكلمة، فقدت إحدى عيناه ورسمت الندبات خطوط طولية وعرضية على وجهه كما أن بعض الحروف لم تكن تخرج من فمه كما يَجب.

لم يكن لديّ تعليق فتركته يقص القصة:

– عندما أعتقلتُ في عهد الرئيس حافظ لم أكن وحدي في السجن بل كان معي الكثيرين من أعضاء الحزب فكنا عصبة نحمي ظهور بعضنا في مواجهة أعدائنا من المنتسبين للتيارات السياسية الأخرى ولكن تأخر خروجي من السجن بينما خرج رفاقي واحدًا تلو الآخر بمراسم العفو حتى بقيت وحدي.. وفي يوم صيفي شديد الحرارة كنت أدور حول نفسي في ساحة السجن والغيظ يملأني.. وقتها كنت أحس أنني تعرضت للخيانة ولم يكن معي سجائر فكانت أعصابي مشدودة ففقدت صوابي قليلاً.

كنت على علاقة طبيعية نوعًا ما مع المعتقلين الإسلاميين في البداية ولكن عندما أصبحت وحدي تحولت لهدف لسخريتهم ونظراتهم المتعالية وفي ذلك اليوم عرض أحدهم بي بكلمة وأنا أمر بجوار بعضهم فرددت عليها بأسوء منها وعندما تدخل شيخهم محاولاً التهدئة سببته بأمه.

قهقه ضاحكاً وكأنه استعاد ذكري موقف غاية في السعادة قائلاً "سببتُ أميرجماعة إسلامية بأمه وأنا مسجون وسط جيش من مهاويسه!"

لم يكن حراس السجن يحبون شيء أكثر من مشاهدة المساجين يتشاجرون ويحطمون وجوه بعضهم البعض ولكن سرعان ما توقفت ضحكات الحراس عندما تحولت المشاجرة المستحيلة إلى مقتله.. كنت أشتبك مع أكثر من عشرة من شباب الإسلاميين الحانقين الذين وجدوا في قتل هذا الكافر تعزية عما يلاقونه من عنتٍ وضيقٍ في السجن.

أنقذوني من بين أيديهم بمعجزة ونقلت إلى المشفَى التي خرجت منها بعد تلقي العلاج رجل حر، كانت أيامي في السجن معدودة ولكني لم أعرف فتهورتُ، ونلتُ جزء تهوري علامات لا تنمَحي في وجهي لتذكرني بأن أتروى دائماً.

– ولماذا تأخرَ العفو عنك؟

لم تتغير لهجتة المحايدة وظلت الابتسامة على وجهه وهو يرد:

– لأن بعض الرفاق في الحزب لم يروا أن الوقت ملائم لخروجي وأن المرحلة تحتاج سياسة مختلفة عن طبيعة تفكيري وقتها فقرروا أن أبق في السجن حتى تنتظم الأمور.

الرفاق كانوا مُهاب الدين كنت متأكد أنه يعرف، فلم يكن الأمر يحتاج للكثير من الذكاء لإدراك من صاحب السياسة المختلفة الذي لا يرغب في وجوده وتأثيره على أعضاء الحزب، ولكني لم أواجهه بذلك التوقع الذي رغم قوته يفتقر إلى الدليل ووجهت اليه سؤال أكثر عمومية:

– وما موقفك من هذا السلوك؟ هل تري الغاية تبرر الوسيلة وأن التضحية بوضع صديق في المخاطر مقابل عادل لهدف سامي؟

– بالتأكيد.. السياسة ليست لأهل القلوب الرقيقة والمشاعرالحساسة.. ليست للأناس الطيبين الطبيعيين على الاطلاق، هؤلاء يأكلون خبزهم برؤوس منخفضة ويتمنون السلامة والجنة بعد الموت ولكن من يريد دخول اللعبة فعليه أن يدرك أن هناك ثمن سيدفع مقابل كل تغيير في الواقع وقد يكون باهظاً.

– يقولون إن علاقة الشعب بالسلطة في الشرق تشبه علاقة الرجل بالمرأة الذكر هو المسيطر دائمًا ويتطلب الطاعة المطلقة من زوجته الشعب في حالة القائد فهل ترى هذا صحيحًا؟

– لا أحب استعمال هذا المثل الشائع فهو يسيء للنساء ويصمهم بالضَّعف والقابلية للاستغلال دائمًا وأنا أحترمُ النساء.

توقف للحظة ثم أردف ضاحكًا :

– ربما أكثر من اللازم فعشت حياتي أعزب كما ترى .

عموماً علاقة السلطة الديكتاتورية بالشعب هي أقرب لنمط العلاقة العاطفية المسيئة سواء كان طرفها المسيء ذكر أم أنثى .

هو يضربها بعنف ثم يُعاشرها بشغف..هي تسُبه وتلعنه ثم تهدد بالانتحار إن تركها، تقلبات دائمة بين أظهار مشاعر الحب والاهتمامِ والإساءة والتحقير ورغبة دائمة في السيطرة على الشريك وان كان حطامًا والجلوس على عرش البلد وان كانت خرابًا..يسعى الديكتاتور دائمًا إلى أن يتلاعب بعواطف الشعب ليظهر أنه الوحيد القادر على حمايته حتى من نفسه فيسرف في مدح الجماهير ويسرف في قمعها في الوقت ذاته ويوهمها بأن الجواسيس والخونة والعملاء في كل مكان، ولا تسأل كيف يكون شعبًا عظيمًا ويحتوي كل هؤلاءِ الجواسيسِ والخونةِ الذين لا يراهم إلا الديكتاتور وسفاحيّ أجهزتِه القمعية .

– إذا فأنت تعتقد أن الرئيس كان..

قاطعني وقالها "ديكتاتور".

– طبعا الكل يعرفُ أنه كان ديكتاتور وأي قول غير ذلك سُخفٍ أو نتاج خوف وأنا عجوز جدًا على أن أكون جباناً.. الحقيقة أن إقامة الديكتاتورية كانت هدفنا من البداية.

– وكيف هذا؟

– الاستبداد لم يكن خيارًا هو ضرورة.. شعب غالبيتة العظمى تشعر بالغبن والاضطهاد وتحقد على الأقلية السعيدة الثرية والأقلية الثرية المتنفذة تعادي باقي الشعب والشعب كله ليس لديه ثقافة وطنية بل ينتمي للقبيلة ثم للطائفة ثم للدين بالترتيب فكيف يحكم شعب في هذه الحالة بالديموقراطية؟

جوهر الديموقراطية هي المساواة بين المواطنين.. وكيف تتم هذه المساواة في بلد مقسمة إلى طوائف وعشائر؟ يجب أن تكون الدولة أعلى من الكل وتستوعب جميع الطوائف والعشائر وتهدم بنيان العالم القديم لتقيم جديد.. ولا يحدث ذلك إلا من خلال ديكتاتورية واعية تقوم بما يجب عليها فعله رضى الناس أم سخطوا.

– ولكن أن كانت الغاية هي إقامة دولة حديثة عادلة، أليس من الطبيعي أن يؤيد ذلك الأغلبية فلا تكن هناك حاجة للديكتاتورية؟

– الأكثرية خدعة كبرى.. أغلب الناس لا يصلحون إلا للاتباع وليس للقيادة وهم يعرفون ذلك فما فائدة جيش من التابعين بلا قائد؟ ما يتحكم في الأكثرية هي الأقليات المنظمة فكرًا وعملاً التي تعرف ما تريد وتتخذ الوسائل الملائمة لتحقيق أهدافها وتسويقها لتكسب الأتباع، وفي بلد لا يكفي للحصول على حقوق المواطنة أن تكون مواطن فقط تبرز الطائفية كبديل وتجذب الجماعات الدينية وتستقطب أفرادها بأن تمنحهم قوة يفتقدونها أنهم مهمين وبينهم رابطة وثقى قوية في مواجهة العالم الذي لا يرحم .

وعندما تجد الأقليات الدينية والعرقية من يستغل الدين أو العِرق لتحقيق مكاسب سياسية فإنها تهرع إلى التكتل و العمل المنظم ضده و أن تحججت بالعلمانية والانحياز لنسق الدولة الحديثة إلا إنها في الحقيقة تدافع عن مصالحها الطائفية فتنتج نمط مشوه من العلمانية يقول بفصل الدين عن الدولة بينما ما يفعله فعلا هو فرض نمط من التدين بقوة الدولة فلا يوجد إيمان حقيقي بحرية المعتقد وحق الانسان في التعبير وإنما رفض وعداء لتدين يمسُّ بمصالحهم و يُضعف مركزهم خاصة أن كانت تلك الأقليات تحوز سُلطة و ثروة من خِلال مَوضعها الطبقي والسياسي فمُجابهتها بأفكار دينية تهدم مجدها كله وتزيل قواها كاملة وتنزع عنها السلطة والسطوة وتحولها من مركز قوى إلى ضحيةٍ محتملة في أي وقت .

وهؤلاء جميعاً إن حادثتهم قالوا إنهم ديموقراطيين يؤمنون بسيادة الشعب!

لا وجود للديموقراطية إن لم يكن الشعب موحدًا سياسيًا فكيف يمكنك الاحتكام إلى الأغلبية في ظل انقسام الشعب إلى طوائف لا يعترف بعضها بحق بعضها الآخر في الوجود ذاته؟ الديموقراطية تكون بين متساويين في الحقوق والواجبات مواطنين أمام القانون ونحن لم نكن وصلنا لهذه المرحلة بعد فالقول بالديموقراطية كان عبث.

علقت ساخراً:

– ولكن الدستور والقانون ينصَّان على غيرذلك!

تجاهل نبرتي الساخرة وأجاب بجدية تامة :

– القانون والدستور يسودان في الحالة الطبيعية عندما تكون الأمور على ما يرام أمّا في الحالة الاستثنائية عندما تكون الدولة ذاتها على المحك كحال الحرب والثورة والاضطرابات الداخلية العنيفة فالسيادة هنا مطلقة للدولة مفوضة في

أشخاص حكامها أن يفعل كل ما يمكنهم فعله للبقاء على الدولة حية والحفاظ عليها من الانهيار الذي هو نهاية لسيادة القانون..فالقانون تعبير عن إرادة الشعب ممثلة في كلمة مؤسسات الدولة وقوتها فإن سقطت سقط القانون معها فلا منطق إذا في التمسك بقانون يؤدى التمسك به إلى سقوط الدولة وانهيارها لأنه لا يصبح في ذلك الوقت قانون فالدولة هي التى تصنع القانون وتصنعه لمصلحتها.

– ومتى تنتهي حالة الاستثناء؟ حالة الطوارئ معلنة في هذه البلاد منذ أربعين عامًا ودائمًا هناك خطر جسيم يتهدد الدولة يقتضي أن ينحى القانون جانباً فمتى يكون القانون هو القانون إذا؟

– حالة الاستثناء لا يمكن إلغائها مطلقًا ولكن الاستثناء ليس القاعدة ولكن هذه الحالة قد أسيء استعمالها وأطِيلَ في أمدها لأغراضٍ غير موضوعية.

– تلك الأغراض الغير موضوعية أغراض رأس السلطة أليس كذلك؟

لم يرد واكتفى بابتسامة صغيرة..

– إذا فأنتَ ترى أن الديكتاتورية واجبة أحيانًا لتغيير وضع قائم فهل هناك معايير للتفرقة بين تلك الديكتاتورية الواجبة والأخرى؟

– بالطبع فإن اتفقنا أن الديكتاتورية تنتجها حالة الاستثناء فهي بطبيعتها مؤقتة لتحقيق غرض التحول السريع ومواجهة الثورة المضادة ومساعدة الشعب على اكتساب الأدوات اللازمة ليتمكن من التحكم في مصيره ومقدراته، فغايتها استنقاذ الوطن والشعب وتحقيق مصالحة وتلك المصالح لا ضمان لها إلا أن يكون الشعب واعٍ ومُتلك للأدوات التى تمكنه من ذلك.. فالديكتاتورية هنا هي أداة لكسر قوى الثورة المضادة والرَّجعية وليست لقمع الشعب ذاته فهي استثناء وليست قاعدة.

وعلى الجانب الآخر فإغراء السلطة المطلقة وخاصة في وقت الأزمات التي تجعل أصحاب السلطة بها يظهرون كأبطال أسطوريين قويٌ للغاية ويصعب على أي أحد مقاومته.. والحقيقة أن المقدمات تظهر النتائج بوضوح إن كان الديكتاتور يصطنع قوىً خاصة تدين له بالولاء فهو يصطنعها لنفسه وإن قوى الأجهزة الموجودة وأنشأ جديدة ذات

طابع مؤسسي تلتزم بالقانون أيّا كانت درجة قسوته وعنفه فهو يدرك أن الديكتاتورية مؤقتة ويسعى لزوالها بيسر بعد زوال أسبابها.

– وهل كانت هذه خطتكم من البداية؟ أقصد الحزب الذي كنت أحد مؤسسيه وارتبطت به منذ نشأته إلى أن وصل للسلطة فانفرد بها وحظر الأحزاب الأخرى؟

– لم تكن هناك من أيدولوجية حقيقية للحزب.. كانت شعارات الحزب تمثيلاً لطموحات جيلنا الثائر على الوضع المتردي الذي كنا به.. كنا اشتراكيين بقدر ما نرغب في تحسين حياة شعب من الفقراء والمعوزين، وأن تتولى الحكومة مسئوليتها في هذا الشأن وكنا قوميين لأنها كانت الطريقة الوحيدة لتوحيد شعب تمزقة الخلافات الدينية والمذهبية والطائفية والعرقية وكنا عروبيين لأننا رغبنا في وسيلة لتقريبنا مع دول الجوار وكمنا أعداء للإمبريالية والصهيونية لأنهم كانوا الأشرار الذين يترصدون بنا في الظلال.

وقد كانت فترة انضمامي للحزب فترة زخم سياسي كبير فقبيل الاستقلال وبعده كان الشعور العامل لدي الجميع بوجود فراغ سياسى كبير في غياب قوة سياسية تتمكن من قيادة شعبنا كماعاد من الخارج جيل جديد من المثقفين محملين بأفكار ثورية، كما نشطت الحركات الإسلامية وتأثر الكثيرين في الجيش بالانقلابات في البلاد المجاورة..كان هذا الوقت الذي ظهر فيه حزبنا كان المؤسسين قلة من جيل الشيوخ أصحاب ثقل ثقافي ولكنهم كانوا بلا خبرة سياسية كالجميع بل كانت أسمائهم لامعة نتيجة ثقافتهم ومقاومتهم للمستعمر فكان وجودهم مرحلة تأسيسية انتقلت بعدها شعلة الكفاح تلقائيًا إلى جيلي بلا صدام ولا تخطيط..كان هذا الحراك الطبيعي وعندما تم الاستقلال أخيرًا كان هذا الجيل قد استنفذ أغراضه وطاقته وكان من الصعب على أي منهم المطالبة بمناصب قيادية تنفيذية خاصة وإن الحزب كان في حالة صِدام دائم حتى انفرد بالسلطة.

أمّا نحن الجيل الثاني ومن حولوا الحزب من تجمع ثقافي بمقهى إلى أقوى تنظيم سياسي ربَّما في المنطقة كلها؛ فكنا شباب لا يتجاوز أكبرنا سنًا خمسة وثلاثون عاماً، وكنا كما وصفنا الأستاذ البيطار "الجيل الذي يعد نفسه لدخول المعركة جيل يمتلك إخلاص الأطفال وشغفهم، لا يفهم ألاعيب السياسة ولا يسعى لإرضاء أحد من الناس أو قوة داخلية أو خارجية بل يشتبك مع الفساد والعفن بقوة غاشمة لا تعرف الاستكانة ليصنع وطنًا على يديه ويخرجه من

عقله وقلبه إلى الواقع..رسالتنا ودورنا أن نمكن هذا الجيل لا أن نقف حجرعَثرة في طريقه فيضطر لركلنا..هذا الجيل الصاعد لديه دورٌ تاريخيٌ يقوم به ويجب علينا أن لا نكون حمقى فنقف أمام عجلة التاريخ."

وعلى كلٍ فغاية الأيدولوجية هي تغيير المجتمع وقد تغير مجتمعنا بعمق خلال العقود الماضية ربما ليس كما كنا نرغب بالضبط ولكن بدرجة كبيرة ولا يحقق المرء كل ما يتمنى.

- وبعد المرحلة الأولى "الطفولية" تبلورت أفكاركم عندما نضج الحزب وصّار جزء من السلطة؟

- كان توجهنا نحو إقامة نظام ديمقراطي متعدد الأحزاب وأن تكون المرحلة الأولى فقط هي التى يحكم فيها البلاد بقبضة حديدية حزب واحد يحول هذا الشعث إلى شعب وهذه الأرض القاحلة إلى وطن ويعلم الناس معاني الوطنية ويزكي احساسهم القومى ويرفعُ عَنها الذل والفَاقة.. فلا عاقل يقول باعطاء الفلاح الأمّي الذي لا يجد حذاءًا يلبسه ولا يفهم ما هو الوطن أصلاً حق اختيار القيادة السياسية فلا يعنى هذا إلا تكريس استبداد أصحاب القوة والثروة وزيادة سيطرتهم على الناس وتحويلهم من نصف عبيد لهم إلى عبيد كاملين.

ثم دفعتنا الظروف والضغوط إلى اجراء تغيرات جذرية في تكوين الحزب وطبيعته، كان لابد من السيطرة على مجريات الامور حتى لا يخترق الحزب ولكي نمنع التكتلات ونضمن جودة القرار وولاء من يتخذونه التام لمبادىء الحزب وتجنب ألف مشكلة أخرى، فتغير نظام العضوية في الحزب لتصبح المناصب القيادية والمتوسطة أقرب لتنظيم سري بينما العضوية العادية مفتوحة تقريبًا للجميع ولكن دون ثمة حقوق حزبية ولا قوة حقيقية.

ثم أردف متسائلاً: هل تعرف عزيز عبد الهادي؟

"الكل كان يعرف عزيز عبد الهادي، زعيم الحزب الشيوعي الذي ظهر على شاشات التلفاز ذات مساء ليعلن للعالم أن حزبه يعد لانقلاب ضد الرئيس البكر بتمويل من السوفيت!

مذبحة قامت ضد المنتمين للحزب الذين سحلت جثثهم في الشوارع وعلقت على أعمدة الإنارة وتعفنوا في زنانين التعذيب بينما ذهب هو كسفير في أحد البلاد الأوروبية لعشرة سنوات كاملة قبل أن يفجر رأسه أحد أبناء ضحاياه الذين فروا من البلاد."

أجبت بكلمة واحدة: نعم.

– ولكن ما لاتعرفه هو سبب انشقاق عزيز.. لم يكن الأمر نتيجة تعذيب أو اختطاف أبناءه والتهديد بقتلهم كما شاع وإنما كان سبب انشقاقه ومبرر ما فعله هو خلاف حزبي حيث أراد زملائه عزله من قيادة الحزب فقرر تدميرهم في لحظة جنون!

هذا بالضبط ما كنا نتجنبه.. ذلك النوع من الأحزاب التافهه الذي يصل فيه معتوه إلى أعلى منصب تنفيذي به ثم يدمره من أجل الهوس بالمنصب، كنا نطمح أن يكون حزبنا هو مستودع مصالح الشعب الحقيقية والمعبر الحقيقي عن الإرادة الوطنية وليس كيان أجوف كالطبل وبما أن الدولة هي أداة تحقيق تلك المصالح وإنفاذ هذه الإرادة فكان سعياً للوصول للسلطة والانفراد بها طبيعياً.

رغما عني كانت لهجتي ساخرة وأنا أقول:

– وبالطبع فأنتم فقط من يهدف لمصلحة الشعب ويعرفها بدقة ويعبر عن إرادته دون باقي الأحزاب وأصحاب الرؤى السياسية المغايرة.

ردّ السَّامرائيّ بلهجة متفهمة:

– التعددية الحزبية تبدو في نظركَ اليوم أمرًا إيجابيًا وربما ضروريًا وصحيًا للحياة السياسية ولكن بالنسبة لنا كانت مجرد فخ نصبه الاستعمار وميراثُ العهد الاستعماري الذي أراد منع قيام نظام الحزب الواحد في البلاد حتى لا يواجهه ولا يحقق نهضتها فحرض على الانقسام وتعميق الخلافات والدخول في صراعات سخيفة بينما الوطن يقبع في ذيل الأمم .

إيماننا بالدكتاتورية لم يكن إيمان نظري أنه إيمان ينبع من حاجتنا للوحدة وإلى نظام لا يتحمل أن يكون ديموقراطيا.. الحرية مترادفة مع الكفاية ...كيف يكون المواطن الذي لا يجد كفايته من الطعام أو الملابس أو المسكن اللائق حرًا؟ وما معنى الحرية السياسية وسط جماهير أمية وجاهلة ومغيبة قسرًا؟ بالإضافة إلى التخوف من التدخلات الخارجية وقد حاولت العديد من الدول التدخل في سياستنا وكسب حلفاء لهم من معارضينا .

المبادلة كانت واضحة هي التنمية مقابل الحرية لا يمكننا الحصول على الاثنان.. لا أتكلم بشكل مطلق بالطبع ولكن في تلك الظروف التي كنا بها كان هذا الخيار المتاح والحرية السياسية لم تكن تعنى إلا الفوضى العارمة وتمزيق هذا البلد إلى أشلاء.

كانت نسبة الأمية في هذه البلاد تتخطى تسعون بالمئة وثلثا البلاد تحت خط الفقر ولكن بمعاونة ايرادات النفط والتخطيط المركزي والسيطرة على الأسعار وعلى الرغم من خوضنا حرب ضروس وإشكالات داخلية وخارجية متعددة لدينا الآن أقل معدلات الأمية ووفيات الأطفال وأفضل نظام صحي في المنطقة وتعليم أساسي وثانوي مجاني وإلزامي جيد لدرجة كبيرة واقتصاد متماسك وأصبح لدينا جامعات وشبكة طرق ومواصلات عامة ومرافق ممتدة في أغلب انحاء البلاد، حصل عامة الناس على الأمن والرخاء وخرج أغلبيتهم من الفقر فيعيشون سعداء أمنين في بيوتهم دون أن ينشغلوا بالسياسة بينما فقد الطامحون في السلطة فرصتهم .

وإن كان منع هؤلاء الذين يطرحون أنفسهم كبديل لنا ربح للوطن في حد ذاته، فأقوى خصومنا كانت الحركات الأصولية التي تريد أن ترجع البلاد قرون للوراء، والرئيس لم يكن ملحدًا كما روّجُوا بل كان يرى الدين مسالة سلطوية فلا يهمه من يسجد لماذا طالما كان الأمر تحت سيطرته.. لم يكن الأمر كما كان يقول لن أسمح بإدخال العمامة في السياسة.. كانت العمامة تدخل في السياسة شريطة أن يكون الرئيس داخل رأس من يرتديها.

– أعلم طبيعة الحركات التي عارضتكم ولكن هل أنتم أبرياء تمامًا من كونها هكذا؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن كل حكومة تسهم بقدر ما في صناعة معارضتها؛ فحكومة ليبرالية يصعب أن توجد لها معارضة راديكالية ذات شعبية وعندما أسمع معارضيك يشبهون فكرة الدولة بالصنم أفكر ربما أخذوا هذا التصور من سلطة تتصرف مع الدولة باعتبارها كذلك.

عقد حاجبيه مستنكراً وقال :

– لا يمكنك أن تكون جاداً.. الأصُوليون طبيعة فِكرهم رَاديكالية وبغيرها يفقدون مُسماهم وقضيتهم التي أقامُوا على أسَاسِها تنظيمهم وتبرر ليس فقط أفعالهم بل وجودهم ذاته ولا يتصور أن يكونوا تأثروا بأي فِكرٍ من جهة الحِزب

الذي يعتبرونه جيش الشَّيطان في الأرض.. إلا أن تكون من مَهاويس نظرية المؤامَرة وسَأحزن كثيرًا على شابٍ ذكيٍ مِثلك أن يكونَ هكذا .

-لا أقصد طبعًا أن الحزب سَاهم في تكوين فكر الجَماعات الأصولية بشكل مباشر ولكن الأثر الثقافي لحزبك في المجتمع صبغة بصبغة خاصة ترى العنف ضرورة للتغير وترى الغاية القصوى في قيام دولة ذات شروط معينة تبرر كافة الوسائل ولا تقيم وزنًا لاعتبارات التسامح والانسانية في علاقاتها بمخالفيها الذين تصنفهم جميعًا على اختلاف أطيافهم في خانة واحدة.. الأعداء الذين يعتبر التسامح معهم خيانة.. وفي تلك البيئة ازدهرت الأفكار الأصولية المتطرفة التي لا تختلف عن الحزب في الآليات وإنما في الأساس الفكري لها .

تابعت مبتسمًا:

– أنتم من جعلتم التربة مهيأة لبذور الأصولية أن تثمر وإن لم تثمر زهوراً... يقولون إن من يصارع الوحوش يصبح منهم بعد حين .

رد على ابتسامتي الصفراء بأختها وقال :

-ربما ولكن إن اتفقنا على مسألة التربة وأمور الزراعة فمن العدالة أن تقول إن بذور حزبنا وبذور الأصوليات وجدت تربتها الخصبة في أرضنا بعد قرون من الاستبداد الأحمق والاستعمارالانتهازي في الوقت ذاته ولم يكن لأحدنا الفضل في تمهيد الأرض للآخر.

تابعت طرقَ الحديد وهو ساخن :

– وتلك التنمية التي تمت بثمنٍ باهظٍ من دِماء الشعب وكرامته كان يمكن تحقيق معدلات أكبر منها بكثير في ظل دولة قانون وعدالة تحترم حقوق الانسان وتكفل للناس كرامتهم وتحرص على أمنهم كما تحرص على أمن النظام .

لم يفقدْ هدوءه وهو يرد:

-وهذا ما أرجو أن يكون عليه الوضع في المستقبل... لم نكن مجموعة من الساديين نرغبُ في التسلطِ على الناس بل كنا نحلم بوطن قوي يعتز به مواطنيه ويجدون فيه الأمن والرخاء وينعمون فيه بالحرية... ولكن الأمور أخذت منحي آخر ورغم أنني جزء من السلطة إلا أنني لم أكن راضياً عن كثير مما حدث .

-هل كنت تعترض على ما حدث في الحرة مثلاً؟

-بالتأكيد... أنا أكثر الناس رفضًا للتيارات الدينية السياسية ولم أكن متدينًا في أي مرحلة من حياتي وتاريخي السيء معهم يجعلني أمقتهم وأحقد عليهم لا أن أتعاطف معهم... لكن المذبحة ليست فعل مقاتلين هي فعل مجرمين... فرض السطوة وإعادة السيطرة كان واجباً ولكن الإجرام لم يكن له داعٍ... وبعد الانتصار تأتي المصالحة ورأب الصدع وإعادة القواعد الشعبية لحواضن الدولة وليس التنكيل بالجميع وجعلهم مثلاً وعبرة.. لم يكن هذا عمل شريف أخلاقيًا ولا صائب سياسياً.. كان مجرد تعبير عن حيوانية كامنة في بعض رجال السلطة ورغبة تدميرية في البطش وجدوا لها متنفس .

القوة والتي هي أساس السلطة وعصب الدولة ليست فقط القدرة على ممارسة العنف بل في كثير من الأحيان تكون القدرة على منعه، أي جبان يتنمر على من هم أضعف منه ولكن القوي يخوض معاركه بشجاعة وشرف ويمارس العنف بقدر معلوم وهو يملك زمام نفسه فلا يكون العنف إطاعة شهوة وإنما أداء لعمل ضروري بطريقة عقلانية .

كنت أعرف أنه يحاول تبرئة نفسه من الاشتراك في المذبحة ولكن لم أرد أن أكذبه فقلت:

-أحتاج لمزيد من التوضيح بشأن مسالة القدر الكافي من العنف هذه ولكن أولاً كيف تورط الجميع في هذه المذبحة لا أذكر أن خرج صوت واحد يعترض وقتها من أروقة السلطة والحزب بل كان الصوت الوحيد هو التأييد المطلق والتحريض على سفك المزيد من الدماء !

تنهد بأسى قبل أن يرد قائلاً:

-أيسر وسيلة للحصول على الولاء أن تسند المناصب الهامة لمن لا يستحقونها وتتأكد أنهم يدركون ذلك، فيكونون مدينين لك بنجاحهم ورغد حياتهم ولكن هذا له ثمن باهظ.

ليس فقط أنك تحرم من جهد المبدعين والأكفاء الذين أقصيتهم لصالح أصحاب الولاء ولكن إن وضعت رجل في مكانة أعلى مما يتوقع أن يصل فإنه يكون أكثر طاعة بكثير من هذا الذي يجد في نفسه الكفاءة للوصول للمناصب والامتيازات من غيره لأنه يعتقد أنه مستحق لمنصبه وليس منحة قد تسحب منه ان لم يفعل ما يؤمر به، وكذلك يرى كل من هو معارض عدو لأنه يملك قرار نفسه فيمقت فيه ضعفه وانقياده ويحاول الانتقام منه فيكونون مُعول هدم في المجتمع ككل ووسيلة لجره إلى أسفل.

هذا ما حدث في الحزب وسبب انحرافه.

لم يكن الحزب دائمًا محراباً للشر ولكن تمت تصفية الجناح المثقف على يد السفاحين الذين وسمو أفضل أعضاء الحزب وأنقاهم ممن ضحوا بحياتهم من أجل شعارات كانوا يصدقونها بالخيانة والعمالة والرجعية!

أصحاب الأيدي القذرة من الانتهازيين وجدوا فرصتهم على حساب المخلصين فأزاحوهم وأحتلوا مقاعدهم واتهموهم بخيانة الشعارات التي صاغوها والمبادىء التي سطروها ودعوا الناس اليها!

كان هؤلاء المجرمين يُكنون حقدًا لا يمكن تصورة ضد المثقفين وأبناء العائلات المعروفة ويعتبرون كل صاحب إنجاز شخصي وكل متميز بذاته عدوًا سواءً كان صاحب مال أو علم ولكنهم لم يكونوا ليحلموا بما نالوا إلا بفضل مُهاب الدين ورؤيته في عسكرة الحزب وجعل الولاء والطاعة العمياء مقدمين على أي شيء آخر .

ما جرى كان عسكرة تامة للحزب صبغته بأهم علامات العسكرية.. تلك الطاعة العمياء لأوامر القادة مهما كانت غير أخلاقية أو عقلانية ففي الجيش لا يوجد إلا ضباط وجنود يجب على الجنود طاعة الضباط واحترامهم لأنهم ببساطة أفضل منهم وعندما يخرج الضباط إلى الحياة المدنية يتعاملون مع الشعب باعتباره جنود يجب عليهم الطاعة لأنهم أفضل منهم .

هذا يظهر جليًا في حالة استولى على الحكم الضباط بانقلاب.. أمّا في حالتنا فقد استوحى الرئيس عقلية ونفسية الضباط وطبقها على الحزب.

قاطعته لأول مرة قائلاً :

-ولكن ليست كل الجيوش هكذا !

-نعم بالطبع جيوش العالم الثالث، المستعمرات السابقة فقط هي من تسمح بهذا الطائفية المهنية وأن يحتقر من يحمل السلاح من يحمل الأفكار.. كان دورنا أن نهدم هذه الأفكار التى زرعتها سنوات الاستعمار والاستبداد الطويلة ولكننا كرسناها.

الجانب الآخر أيضًا كانوا كذلك فالإسلاميين كما العسكريين لا يقبلون نقدًا ولا يمكن أن يتحولوا للديموقراطية بطبيعة تفكيرهم فالعسكريون تقوم عقليتهم على الطاعة العمياء والتنفيذ المتقن بلا تفكير في جدوى ما يفعلونه ولا فهم الصورة الكبيرة وإلا فكيف يأمر القائد جنوده بخوض معركة يعلم أنهم مقتولين منهزمين فيها؟

وكذلك الإسلاميين يستندون على النصِّ والبَيعة فيتنازلون طواعية عن حقهم في النقد والتفكير فكيف يقبلونه لغيرهم بينما يرون كل من يخالفهم خصم وعدو؟ كما العسكريين يرون كل من يخالفهم خائن فعقليتهم أن عِصيان الأوامر خيانة والتشكيك بها تمرد.

الإسلاميين يرون الرئيس مجرم سفاح لما فعله بهم ولكن ماذا تظن موقفهم إن كان الرئيسُ فعل ما فعل..ولكن من أجل إقامة الدولة الإسلامية على المعايير التي يرونها سليمة؟ كانوا سيرونه بطلاً ويصفقون له حيًا وميتاً.

كان يشرد بعيد عن الموضوع فقاطعته ثانية:

-ولماذا دفع مُهاب الدين الحزب في طريق العسكرة كمصطلحك هل للحاجة إلى الوحدة في مواجهة الأخطار المحدقة به؟

-نعم ولكن ليس هذا فقط، العسكرة كانت هدفاً لمهاب الدين في حد ذاتها وإن لم تكن الظروف التي أنتجتها موجودة لربما كان سعى في إيجادها، المستبد يعتبر نفسه هو الدولة وسَلامته هي سلامة الدولة يعتبر نفسه القانون والمثل العليا ويعتبر آمال الشعب هي طموحاته.

كلنا يتوهم هذا أحياناً ونخلط بين ما نراه صَواباً وبين الصَّواب المطلق ولكن ليس جَميعاً يجلس على عُروش، يجب أن يقف البعض بشجاعة ويتصدون للمستبد.. رجال من داخل السلطة يقفون أمام توغل اوهامه على الحقيقة وإلا

فكيف يعرف الإنسان نفسه إن لم يقارنها بغيره وكيف يكتشف أن أفكاره سخيفة إن كانت كل كلمة يقولها تقابل بتصفيق حار؟

-هل تقول أنه كان يجب على رجال الحزب أن يفعلوا ذلك؟

-الرئيس كان له مستشاريه الأمناء الذين أخلصوا له القول وإلا فكيف تمكن من الجلوس على كرسية حتى حمل من عليه جثة !

وان كانت تقصد لماذا لم أتدخل شخصيًا فالجواب أمامك واضح.. لم أكن أخشى على نفسي إن يضاف اسمي لقائمة ضحايا الرئيس الطويلة ولم يبق لى مع الوقت عائلة أخشى عليها ولكني لم أجد في نفسي دافعًا لتلك المواجهة ولا وجدت لها طائل.. هذا إن كنت وجدت لها سبيل أصلاً لم أعد زميل زنزانة الرئيس لا يملك فرارًا من الاستماع إليه شاء أم أبى.. كانت الخيارات واضحة إما أن أحاول عبثاً التصدي لمهاب الدين أو أن أقبل بلعب الدور الذي سمح لي وأحقق جزء من أهدافي أو أتنحى جانباً وأكون نكرة كما أراد الكثيرين أن أكون.

وحيث إننى لست مؤمناً فالشهادة لم تكن على قائمة أهدافي فغيرت مسار حياتي ورضيت بالدور الذي منح لي ولكنى أجدت فيه حتى أصبحت أحد أعمدة السلطة التي خرج منها من احتقروني على أسنه الرماح.

ولا أظن خياري كان سيئاً أظننى أفدت الوطن وساهمت في نشر التعليم والثقافة بقدر الإمكان وأرضى غروري أن يتملقني المثقفين والأدباء من أجل النشر والمنح والجوائز وهكذا عندما أموت لن يقل أحد أني كنت بطلاً ولكن سيقولون كان رجل جيداً أفاد المجتمع بنشر الثقافة والترجمة والتعليم.

-فلم يكن المسار بهذا السوء إذًا بالنسبة لك! حَظيت بمكانةٍ رفيعةٍ وحققت جانب كبير من أحلامك.

تلفت حولي قليلاً قبل أن أردف:"وثروة معتبرة فيما أرى."

لم أترك له فرصة للرد واستدركت قائلاً:

-نعود لمسألة العنف الضروري، البعض يقولون إن ممارسة السياسة تتطلب أحياناً أن تكون مازوخي أو سادي إما أن تتلذ بعذابات الآخرين أو تتلذ بتعذيبهم لك فهل هذا المقصود بالعنف الضروري؟

كانت ابتسامته قد اختفت وبدأ صوته يكتسب بعض الحدة وبدا أنني أخيراً استطعتُ التأثير على هذا الرجل الجليدي ولكنه استمرّ في الحوار ورد قائلاً :

-نعم العنف ضرورة فلا سلطة تقوم إلا بالعنف ولا يمكن السيطرة على الجماهير إلا بامتلاك القدرة على العنف والاستحواذ على السلطة هو بداية كل حِراك تاريخي فلا يمكنك أن تفعل شيء وأنت لا تمتلك السلطة ولا يمكنك امتلاك السلطة بدون القدرة على فرض إرادتك بالعنف إن كان ضروري بالتأكيد والا فالتلويح به يكفي ولكن لم تقوم سلطة في التاريخ بدون استعمال عنف ولم يحدث حراك كبير في تاريخ الإنسانية كلها بلا عنف .

هذه طبيعة البشر فالانسان قد يكون ذئب أو قط أو فأر.. لكنه حيوان مفترس لغيره في كل الأحوال.. الطفلُ عندما ينمو لديه وعي بذاته يبدأ الصراخ في منتصف الليل ليزعج والديه وعندما تنبت أسنانه يعض أمه.. لا أحد برىء، الكل يفترس ولكن أسنان البعض أقوى من الآخرين.. إن كنت تريد إن تكون قط يسرق الطعام الذي يشتهي فهذا شأنك ستتغذى على الفئران تسرق الفتاة التي تعجب صديقك أو الترقية التى يحلم بها زميلك وتختبىء وراء البراءة المصطنعة وأنتَ تتلقى التهاني على سَرِقاتك الصغيرة التافهة ولكن البعض يريد أكثر .

الرب ذاته عندما نص على عقوبات في كتبه جعلها قاسية شديدة العنف لأنه يعلم إن مخلوقاته لن يوقفها عن الذنب إلا الخوف من عقاب مؤلم وعنيف.. كذلك الحكومات تقتل البعض وتعتقل البعض لتؤكد من قوة صمام الأمان على عقول الشباب المتهور بطبيعته فلا تضطر لقتل مائة بدلاً من واحد واعتقال ألف بدلاً من عشرة.

انتصر يزيد على الحسين لأنه كان الأقوى والأجرئ.. لا علاقة للصَّواب والخطأ بالموضوع الأقوى هو من ينتصر هذا هو قانون الدنيا الذي ينطبق على الجميع بشرًا وصراصِير.. وإن كانت الدنيا لم تكن عادلة مع حفيد النبي وقطعت رأسه وأسرت نساؤه لأنه دخل في صراع كان فيه الأضعف فأي حماقة تلك أن تظن أن تعاملك بأفضل من هذا؟

العدالة موجودة في الدنيا ولكن بجرعات صغيرة كسكر القهوة، لا تحصل على وظيفة ساع بلا واسطة ومعارف فكيف تطمح في تغيير العالم لانك تستحق ولأن لديك أفكاراً وردية؟

الأعمال العظيمة كلها قام بها قلة واعية تحدت السائد وسارت في عكس طريق العامة الأنبياء والقادة العظماء على السواء فعلوا ما قال عنه مدعين الحكمة في زمانهم وعامتهم أنه خطأ.. والسبب واضح حقيقة أغلب الناس حمقى

ليس لديهم الوعي الكافي لإدراك مصالحهم على المدى البعيد ولا السمو الروحي الذي يمكنهم من التعالي على متعهم وشهواتهم الوقتية فكيف نحتكم إليهم؟

الاحتكام إلى العامة في جوهرة احتكام إلى الخوف والطمع الذين يحركون الفرد محدود الذكاء وهو النموذج السائد في العامة وهذا ليس هذا من الأمانة ولا من افعال القادة الكبار ولا من يتشبهون بهم، تملق العامة فعل السفلة من الناس والطامة الكبري تحدث عندما يرتدى هؤلاء أثواب الساسة والمثقفين ويهرفون بشعارات رومانسية لا علاقة لها بالواقع على الاطلاق.

كنت سعيد بأني أستطعت أخيراً أن أجعله يعبر عن حقيقة أفكاره التي بثها لسنوات طوال في عقول الناس ويدعى اليوم البراءة منها فأكملت الحوار قائلاً:

-ولكن هذه دائرة مغلقة لا فِكاك منها؟ فالانسان حيوان سياسي وطالما هناك سلطة فستكون هناك معارضة وإن كانت الوسيلة العنف فهو يضعف المعارضة السلمية ويفتح أبوابَ المعارضة العنيفة والتي يرد عليها بمزيد من العنف وهكذا إلى السقوط في بئر الحرب الأهلية والانهيار التام للدولة؟ فأين المنطق في الموضوع؟

- ومن قال أن الأمر معلق بالمنطق فقط؟ هناك رغبة في استمرارية العنفِ ومجابهةِ المعارضة بالعنف والقمعِ وظيفة الكثيرين جعلتهم فوق القانون ومنحتهم امتيازات لا توجد في دولة قانون وهولاء أول المعترضين على توجه السلطة لتقبل المعارضة وفتح أبواب الديمقراطية ولو نسبيًا أو ظاهريًا.. إن كانت حربًا فسيكونون أمرائها ولن يتنازلون عن تلك السطوة الأسطورية إلا مرغمين .

- إلا يشعر من يربي هذه الوحوش بالخوف منهم أحيانًا؟

بالطبع يخاف منهم فالقائد الذي يأمر الجندي بقتل شخص لا يعرفه ولم يسىء إليه قد يشعر بالفخر إن نفذ الجندي الأمر بلا تردد ولكنه يموت رعبًا إن نفذ الجندي الأمر بابتسامة، يصبح الملوك أسرى لدى مماليكهم كما كان في التاريخ القديم، أصبح الخلفاء سجناء قصورهم ولا يملكون لقادة جندهم شيء.

وهنا مربط الفرس.. أن كان من يمارس العنف شخص فهو سيكون ضحيته في النهاية بالتأكيد ولكن أن كانت الدولة هي التي تمارسه ممثلة في نظام سياسي يفعل ما هو ضروري بوعي لبقائها فهذا يكون تطبيق لقانون الحياة الذي يسري على الجميع وهنا يكون العنف مبرراً لأنه لصالح القيمة الأعلي وهي الوطن وليس لصالح شخص ما .

كنا نريد أن يكون الوطن هو المعيار الأعلى الحاكم للصواب والخطأ والذي يفرق بين الحسن والقبيح فهل يمكن أن يقول شخص ما إن النشيد الوطني لبلاده سيء أو مُوسيقاه مزعجة؟

-أظن نعم فالمسألة ذوقية.. هي موسيقى على كل حال!

-لا يا صديقي، الوطنيّ الحقيقيّ لا يمكن أن يشعر بأن هناك عيب في رمز من رموز بلاده، مرآة المحب عمياء كما يقولون في الأمثال والذي يحب لا يري عيوب وكذلك الوطني الحقيقي مشاعر الانتماء تغلب أي مشاعر أخرى عنده، وكما الإله يحدد ما هو العدل والصواب ولا يخضع لتصورتنا نحن البشر عن العدالة والصواب فكذلك الدولة تلزم مواطنيها بما هو قانوني وصحيح ولا يملك الأفراد وصم فعلها بالبطلان لأنها من يحدد الصواب والخطأ ابتداءًا.

-أليس هذا مجرد تحديث عصري لنظرية الحق الإلهي للمُلوك؟ أستبدلتم مصدر السلطة اللاانهائية للملك بالدولة بدلاً من الإله في العصور الوسطي؟

-كنا نريد أن يسود الوطن أن يكون الوطن أولاً وليس الولاءات الطائفية والحزبية الضيقة غايتنا كانت اخراج بلادنا من سجن القرون الوسطى الذي وضعتنا فيه قرون حكم الرَّجعية والتي كرسها الاستعمار لتكون قاطرة حضارة جديدة ولم يكن هناك سبيل سوى إزكاء شعلة الوطنية في النفوس لأقصى حد.

رددت بقوة متحدياً :

-لا عبيد وطنيين... الوطنية لا يشعر بها إلا الأحرارَ؛ فعندما يعتز الانسان بوطنه فإنه في حقيقة الأمر يعتز بذاته وهويته فكيف يكون الإنسان الذي ينظر إلى نفسه بدونية واحتقار ويرى نفسه شيء أقل من إنسان أن يكون وطنيًا وكيف يدعيّ من يدفعون الشعوب إلى أن احتقار أنفسهم هكذا أنهم وطنيون وكيف نتوقع من رجل خائف لا يأمن على نفسه وعرضه أن يكون مواطنًا مخلصًا للبلاد؟

ولكن ما تسمونه الوطنية التي تفرض على الناس أن يضحوا بأنفسهم ويقتلوا من أجلها دون وازعٍ من ضمير ولا تساؤل أخلاقي عن جدوى أو صواب ما يفعلونه تنفيذاً للأوامر عبارة عن دوجما أخرى دين جديد استبدلتم أديان الناس وطوائفهم به!

لا غرابة أن يقول معارضيكم أنكم أقمتم صَنماً اسمه الدولة يعبد وتقدم له القرابين البشرية ونصبتم أنفسكم كهنته وتحت مسمى الوطنية عصَفتم بالأخلاقيات والفضائل.

أجابني معترضاً :

-الأخلاقيات والفضائل مِن وجهة نظر من؟

عادة ما يطلق عليه اسم الفضيلة والأخلاقي هو مجرد وجهة النظر السائدة فمثلاً القديس بولس كان أحد راجمي المسيحيين قبل أن يتحول إليها بينما الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي اضطهدهم وعذبهم كان من أرق أهل عصره طِباعًا وأكثرهم تسامحًا و ما بطش بالمسيحيين إلا لأنه رأى في ذلك حماية للمجتمع من الديانة الجديدة التي تهدد بهدمه و تفكيك أواصره، وبعد عصور مظلمة من حكم الاستعمار وأذنابه كان الشعب يحتاج لإعادة تربية ليمحو أثر الاستعمار والفساد من العقول والصدور وإلى أن يحوز الشعب الوعي الكافي؛ فعلى قيادته أن تضطلع بمسئوليتها ولا تتهرب منها كالجبناء تحت أي مُسميات وإن كانت ناعمة كالرحمة والإنسانية.. الوطنية هي الرحمة والانسانية والعدالة والخير الأسمى أما الفرد فهو أناني بطبيعته البشرية ولا يخرج من هذه الأنانية العمياء إلا بالانتماء والولاء لما هو أكبر من ذاته ولهذا نؤكد على معاني الوطنية الشاملة.

العامة يحددون ما هو خير وما هو شر طبقًا لمنفعتهم ورؤيتهم لمنفعتهم قاصرة محدودة تبعًا لذكائهم ووعيهم المحدودين.. ففي كثير من الأحيان يكون الشر في أعينهم هو الخير لهم ولكنهم لا يدركون ذلك الذي يدرك هو من لديه الوعي والذكاء والرؤية لإدراك ذلك والشجاعة على تحقيقه وإن وصمه الأغبياء بالشر نتيجة جهلهم.

القادة هم من يحددون المعايير والقيم وليس العامة او المتثاقفين هذا دورهم التاريخى ومسئوليتهم التى منحها لهم القدر عندما سمح لهم بالوصول إلى مقاعد السلطة ومنحهم القوة ليحققوا قدرهم والا فهو العبث مثل أعتبار الاخلاقيات

السائدة والأنصياع لما يعتقد العامة انه اخلاقى بينما المصلحون كانوا لا اخلاقين في نظر المجتمعات التى حاربوا فسادها.

رددت وقد بدئت أحس بالضيق من مراوغاته:

-هذا موضع تدليس في كثير من الأحيان، المصلح الحقيقى يحدد بوضوح تلك الاخلاقيات الكاذبة في المجتمع ويواجهها حتى لو كانت تحقق مصالحه أما الزائف فهو يكتشف أن هذه الاخلاقيات كاذبة فقط أن حالت بينه وبين رغباته، فيتحجج بفساد المجتمع ليتعالى على أخلاقياته ويروجُ مفاهيم وأفكار لا تهدف إلا لتحقيق مصالحه كما يوصم دعاة الحريات في الدول الشمولية بالفساد الأخلاقي بينما تعتبر الطاعة العمياء والولاء المطلق للدولة وإن تعارض مع الولاء للاسرة ولقناعات الانسان ذاته هو الفضيلة بعينها ولكن هذا يكون صحيح في بلادنا فقط وعندما نكون في الحكم فقط أما إن كنا خارج السلطة فإسقاط الحكومة والثورة على الدولة هو الأمر الأخلاقي المحمود.

هز السامرائيّ رأسه مبدياً عدم الاقتناع:

-يمكننا أن نتجادل حتى الصباح دون طائل ولكن الحقيقة أن الجماهير سطحية التفكير سهلة التلاعب بأفكارها وعواطفها فلا يمكن الثقة بها.

رددتُ ساخراً:

-يتم التلاعب بها كما يفعل كل نظام قمعي يدعى أن معارضيه هم أعداء الوطن وأنهم لا يهدفون لإسقاط الحكومة أو تغيير نظام الحكم وإنما إسقاط الدولة وتدميرالوطن وتسليمه لقمة سائغة لأعدائه مهما كانت هذه الدولة تافهة وكان الأعداءُ الافتراضيون تافهين .

رد السامرائيّ متحدياً:

-ولماذا يصدق أغلب الناس هذا الهراء؟

إلاّ يثبت صحة وجهة نظري أن أغلب الناس تصدق هذا الهراء ببساطة تامة لأنهم إن لم يصدقوا فمعنى ذلك أن نظامهم إجرامي يتعمد تضليلهم وتزييف وعيهم وهذا يقتضي منهم إن كانوا جديرين بالاعتبار أن يقاوموا هذا النظام ويقفوا في مواجهة السلطة؟

رددتُ ساخراً:

-يقاوموا السلطة التي تمتلك كافة أدوات القمع وأساليب العطاء وتحاصرعقولهم بألاتها الإعلامية؟

رد السامرائيّ مسرعاً:

-ومن منح السلطة هذه الأدوات؟ أليس الشعب ذاته؟ أنها تلك الجماهير التي تصفق وتهتف وتطيع وتمنح السلطة شرعيتها وقوتها بموافقتها الصريحة أو الضمنية بالصمتِ المتواطىء.

إن الأغلبية الساحقة تابعين وليسوا قادة هكذا خلقوا وهكذا الحياة.. فئة ضئيلة تملك القدرات اللازمة على القيادة بينما سائر الناس مهما حسدوهم وطعنوا في قدراتهم وأهليتهم لا يمتلكون هذه القدرات وعلى رأسها الشجاعة الواجبة لاتخاذ ما يلزم لتحويل الفكرة إلى واقع والباقين يتبعون من يقودهم .

البرجوازيُّ الصغير يذهب للعمل ويحلم أن يمتلك متجرًا وزوجة جميلة وأطفال مؤدبين هذة جنة الرجل الصغير ولكن الكبار لديهم أحلام أخرى لا تكفيهم الحسابات البنكية المتضخمة ولا النساء الفاتنات ولا ترضي طموحاتهم ولا تطفىء الجوع الذي يأكلهم وهم على استعداد أن يعيشون بالسيف ويموتون به في سبيل ما يؤمنون به.

ابديت اعتراضاً قائلاً:

-عندما يتملك الخوف من الناس يزهدون في الظهور كقادةٍ ومؤثرين في مجتمعاتهم وينكفئون على ملذات الحياة يتنافسون في جمع المال لعله يشعرهم ببعض الأمان وتسقط الطبقات القادرة ماديا في هوة الهوس الاستهلاكي وعبادة المظاهر، أما الفقراء فيمتص البحث عن لقمة العيش كل طاقتهم وغايتهم العظمى ان تبقى رؤوسهم على أكتافهم وان يملئوا بطونهم الجائعة... فكيف يمكن للجائع أن يثور أو حتى يفكر بشكل منظم وعقلاني ليتحرك في توجه ثوري ما وهو يصارع الخوف والجوع ولا تحركه إلا غريزة البقاء؟

رد السامرائيّ ببرود:

-وكيف لا تعاملهم السلطة كأغنام إن كان هذا حالهم؟

كلُ شعب يحصل على الحكومة التي يستحق وإن كانت هناك قلة تعترض على النظام القائم فعليهم أن يتحلوا بالشجاعة الكافية لتغييره كما فعلنا لا أن يتوقعوا أن يتغير العالم من تلقاء نفسه لصالحهم .

-تريدون من معارضيكم أن يتخذوكم مثلاً ويعيدون تجربتكم إذًا!

-لا بل هي تجربتنا التي كان لها ظروفها التاريخية الخاصة والتاريخ لا يعيد نفسه هو يُعطي دروسًا فإما إن تفهمها أو تُعاد لك ثانية.

المجتمعات الزراعية خلقت المجتمع الهرمي حيث لابد أن يكون هناك مجموعة تتحكم وتخطط وتنظم عمليات الزراعة والري والحصاد التي تتطلب جماهير تطيع وإلا فكيف يمكن استمرار النمو؟ هكذا قامت الحضارات كلها القديمة والحديثة فئة ضئيلة من الناس تسيطر على المجموع وتدفع الجماهير رغمًا عنها لإنتاج الحضارة وإن تراخت هذه الفئة عن آداء واجبها أكل الكسل هذه الحضارة وانهارت، ثم كدست الرأسمالية ثروات ضخمة جعلت الاستغناء عن هذه الوسائل القديمة وإقامة مجتمعات رفاة ممكناً، وتطورت التكنولوجيا فأصبح كل إنسانٍ يعرف كيف تدار الدولُ على الجانب الآخر من المحيط بدقة لا يعرفها عن بلدة وتفتحتْ أعين الناس على بحور من المعارف والأفكار، هذا عالم جديد له قواعد مغايرة لما كانت في عصرنا.

تنهد قبل أن يكمل:

هناك جيل جديد نشأ في ظروف مغايرة لنشأتنا ولديه أفكاره وطموحاته وله الحق في أن يجرب ولعل تجربتهم تكون أفضل من تجربتنا التي كان بها الكثيرمن التجاوزات.

رددت بقسوة:

-الظروف لا تصنع المجرمين وإنما تظهرهم.. تحت الضغط تظهر معادن الناس وأنتم كنتم تريدون الديكتاتورية وجحد حق الناس في الحرية والكرامة وأردتم الاستئثار بالسلطة وساعدتكم الظروف ولم تضطركم وإن كنت تنتقد مُهاب الدين الآن فلا أظنك كنت ستختلف عنه قيد أنملة لو كنت محله.

جفل للحظة ثم ابتسم قائلاً:

-نعم، أظنك محقاً لم أكن لأترك السلطة حياً وكنت سأفعل كل ما بوسعي للأحتفاظ بها.

لكن هذا من الماضي.. الآن قد انتهى عصرنا وعلى الجيل الجديد الذي سيحل محلنا أن يحزمَ أمره ويتخيرَ الطريق الذي يرغب في السير فيه وإن كان يريد كراهيتنا فليفعل ولكن لا يجعلنا عذراً يعلق عليه تخاذله.

الرحيل

عدت إلى غرفتي بالفندق وسط العاصمة لأحزم أمتعتي وأرحل.

لم أهتم بالرحلة السياحية التي قدمت معها، كان وجود رجال الامن الذين كشفتهم طبيعتهم الذئبية حولي كثيفاً ولعلهم أكتشفوا امري قبل أن تطىء قدمي البلاد أصلاً ولم ينطلي عليهم أدعاء أنى أتيت سائحاً من الأساس ولكن لم يعد هذا مهماً قد أنتهت رحلتى هنا وأريد المغادرة فوراً.

لم أكن بحاجة الى عقد المزيد من اللقائات ولا جمع المزيد من المعلومات حصلت على الإجابات التي اريد والتي ارقتنى طويلاً.

بنهاية رحلتي أدركت انى لم أهتم بتاريخ هذه البلاد أهتمام مهني كصحفي ولا كانت غايتي من هذه الرحلة أثراء كتاب أشك الأن في أقدامي على أتمامه بل كانت المسالة من بدايتها مسالة شخصية.

وليس الامر مجرد بحث عن جذور أجتثت من أرضها ولكن ما حدث في هذه البلد وتاريخها الحديث هو ما رسم مسار حياتي وحياة المراة التي أحب وهؤلاء الذين صنعوا تاريخها صنعوا كعرض جانبي حياتي وكونوا شخصيتي.

مهاب الدين كان دائما برأسى وان لم أكن اعرف عنه شيئاً.. يقبع في زاوية مظلمة بعقلي ويبث فيه المخاوف ويرسم في مخيلتى الكوابيس يسري في دمائى ويختلط باعضائي كالجينات الموروثة.. وقد حان الوقت ليخرج من عقلي كما خرج من العالم.

وكما على أبناء هذه البلد أن لا يلتفتوا للخلف أن أرادوا أن يخطوا للامام فانا أيضا يجب على ان لا التفت للماضى.

في طريقى للمطار بدأت كتابة رسالة قلت فيها:

أبي العزيز ...

أظنني مدين لك باعتذار.

لم أشكرك أبداً على ما قدمت لي عندما منحتي الفرصة لأختار وطني وأتهمتك أنك فرضت عليّ ما تصورت أنه الأصلح لي بناء على تجربتك الشخصية وليس وفق معايير محايدة.

أشكرك على أن علمتني أن ما يمنح الرجل قيمة ليس المال أو الشهرة أو النفوذ وإنما أن يكون حراً يعيش وفقاً لألتزامه الأخلاقي وإرادته الحرة وليس تبعاً للأخرين .

أشكرك على أن علمتني أن وطن المرء حيث ما كان قلبه وليس أين ولد ولا ما كتب في بطاقة الهوية.

اليوم أنا أدرك أسباب اختياراتك وفهمت دروسك واليوم أختار وطني الذي انتمى اليه مختاراً وأكون به حراً وله محباً أمنحه حياتي راضياً بلا تردد ..

وطنى هناك واسمه سناء وأني عائد إليها.

تَمتْ بحَمدِ الله

حساب الكاتب على فيس بوك

https://www.facebook.com/ahmed.fathie.7

رابط الكتاب على جود ريدز (برجاء إضافة مراجعتك وتقييمك للعمل)

www.goodreads.com/book/show/55850056